عبد الوهاب مطاوع

سلامتك من الآه

فريق متميزون
E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: سلامتك من الآه... للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لمقالات الراحل
عبد الوهاب مطاوع

سلامتك من الآه

عبدالوهاب مطاوع

هذا الكتاب..

كتبت فصول هذا الكتاب على مدى أكثر من عامين وبفاصل زمني بين كل مقالة وأخرى لا يقل عن شهر، ومع ذلك فلقد شعرت حين جلست لكي أراجعها وأجمعها في كتاب كما لو كنت قد كتبتها كلها في جلسة واحدة متصلة!

فالروح التي تسري فيها كلها واحدة... والنغمة التي تعزفها بتنويعات مختلفة أيضاً واحدة وهي الدعوة لأن نتعلم جميعاً كيف نحيا حياتنا بالطريقة الصحيحة.. وكيف نبتهج بالحياة ونستمتع بها رغم الصعاب والآلام. وكيف نحاول دائماً تحجيم مساحة الشر والخسائر الإنسانية فيها، وتوسع من دائرة الخير والحق والجمال في رحلتها.. وأن نؤمن دائما بخيرية الحياة وبالمثل العليا الجديرة بأن نعتصم بها وسط هدير أمواج الحياة المتلاطمة من حولنا.

إنه كتاب يؤمن ببهجة الحياة كتبت معظم فصوله للشباب، وآمنت دائماً بأن الشباب ليس مرحلة سنية تنقضي بانتهائها، وإنما هو حالة وجدانية وعقلية يستطيع الإنسان أن يتعامل بها مع الحياة من بداية الرحلة إلى نهايتها، إذا احتفظ بصفة واحدة من صفات الشباب هي الحماس!

وبهذا المفهوم الصحيح للشباب نستطيع أن نتفاعل مع الحياة وأن نتعلق دائماً بالأمل في غد أفضل وألا نفقد أبداً قدرتنا على تذوق الأشياء الجميلة في الحياة والابتهاج بها، مهما بدت للآخرين من فاقدي الحماس والمصابين بفشل الروح أشياء بسيطة وعادية ولا تلفت أنظار الآخرين.

أما فصل (سلامتك من الآه)، الذي اخترت عنوانه لهذا الكتاب فلقد كتبته انفعالاً بأحزان شاب وحيد نشرت رسالته في بريد الجمعة بالأهرام.. وكان يشكو لي فيها من وحدته القاتلة بعد رحيل أمه، ومن قبلها أبيه ويقول لي إنه يعجب لزملائه الشباب بالجامعة الذين يشكون من قيود الأهل عليهم ومحاسبتهم لهم عن تأخرهم خارج البيت إلى وقت متأخر من الليل ويتلهفون على اليوم الذي يصبحون فيه **(أحراراً) من كل قيد، ويروي لي أنه يحيا هذه الحياة (الحرة) الآن ويخرج حين يشاء ويرجع حين يشاء، فلا يجد من يسأله عن أسباب تأخره في الخارج ويعزف أحياناً عن مغادرة البيت للذهاب إلى كليته فلا يسأله أحد عن أسباب عدم ذهابه إلى الكلية لسبب بسيط هو أن أمره لم يعد يهم أحداً في الكون كله سواه.. ولهذا فهو يفتقد هذه القيود العائلية التي حرم منها بعد رحيل أمه.. والتي لا يقدرها بعض الشباب ولا يدركون أنها قيود الحب والرعاية والاهتمام بأمر الإنسان!**

ولقد أثارت هذه الرسالة تأملاتي وأعادتني إلى مرحلة من حياتي عشت فيها نفس وحدته الكاملة بعيداً عن الأهل ومحروماً من (قيود) حبهم واهتمامهم بأمري فكتبت هذا الفصل.. ورويت فيه تجربتي مع الوحدة وافتقادي في تلك المرحلة من عمري لمن يهتم بأمري.

فلعلك يا صديقي إذا قرأت هذا الكتاب تشاركني رؤيتي للحياة ومحاولاتي للتفاعل السليم معها.. ولعلك أيضا تشاركني تقديري لحب الأهل واهتمامهم بأمر الإنسان.. وإيماني بأهمية أن يجد كل إنسان في حياته من يخفق قلبه له بالحب والعطف والاهتمام، ومن يقول له حين يحتاج إلى التعاطف الإنساني: سلامتك من الآه.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضيعت الشلن!

بعض الأحداث الصغيرة قد تترك أثراً كبيراً في نفسك وتفكيرك ورؤيتك للحياة! أما ذلك الحادث العابر الصغير الذي أحدثك عنه فلقد جرى لي في طفولتي وأنا في السادسة أو السابعة من العمر، أمام البيت بشارعنا بمدينتي الصغيرة دسوق. فلقد كان لشارعنا كغيره من شوارع مدن الأقاليم الصغيرة (شمال غني).. و (جنوب فقير)، كما هو الحال الآن في الكرة الأرضية، إذ كان يتقاطع أو يصب في شارع المدينة الرئيسي، فكانت البيوت الأقرب إلى الشارع الرئيسي في (الشمال) يقيم بها متوسطو الحال من التجار والموظفين والبيوت التي توغل في اتجاه الجنوب يقيم بها البسطاء من العمال وأهل الحرف والباعة الجوالين. أما الطفولة فلم تكن تعترف بالفوارق الاجتماعية، فأطفال الجميع يلعبون معاً بالكرة وباقي الألعاب، ولا أغالي إذا قلت: إن أبناء متوسطي الحال كانوا يغبطون أبناء البسطاء على (نعم) جليلة عديدة كانوا هم محرومين منها.. أعظمها نعمة (الحرية) التي كانوا يستمتعون معها باللعب في الشارع بالجلاليب الفضفاضة المريحة من طلعة النهار إلى أن يتأخر الليل، في حين يجبرنا الأهل لأسباب غير مفهومة لنا على أن نحرم أنفسنا من هذه (البهجة) ويرغموننا على الذهاب كارهين في الصباح الباكر إلى المدرسة وقد انحشر كل منا في بنطلون قصير ضيق، وقميص مزعج يحتاج ارتداؤه إلى معالجة كل هذه الأزرار السخيفة، ناهيك عن الجورب الذي لا معنى له.. وهذا الحذاء الضيق الصلب الذي لابد له أن يكون لامعاً وإلا تعرضنا للعقاب في طابور الصباح كما لابد لأظافرنا أن تكون مقصوصة جيداً وإلا هوت عليها مسطرة الناظر بلا رحمة خلال تفتيشه اليومي على نظافتنا الشخصية، ثم نساق بعد كل هذا (الهوان) في الطابور إلى الفصول حيث نجلس في سكون كالمساجين.. وتخضع للأحكام العرفية التي يفرضها علينا مدرس الفصل فلا يتنفس أحد منا إلا بإذنه ولا يَقصرنَّ أحد منا في حفظ هذه (الخزعبلات)، التي يفرضون علينا نقلها عن السبورة وترديدها ترديداً جماعياً حتى نحفظها ونؤدي الامتحان فيها. وبينما نقوم نحن بهذه الأشغال الشاقة ونخضع لهذا (القهر) مترقبين بفارغ الصبر انتهاءه، كما يترقب المسجون بلهفة يوم الإفراج عنه، يكون رفاق الشارع (الأحرار) في نفس اللحظة يمرحون في ملاعبهم وملاهيهم وعبثهم بفضل بعد نظر آبائهم الذين لم يرضوا لهم بما رضي لنا به آباؤنا من إذلال مدرسي! فمن يستحق إذن أن يحسد الآخر على حياته و(حريته)، و(حكمة) أولياء أموره؟ نحن سجناء المدارس.. أم هؤلاء الرفاق الأحرار؟ لقد كنا نغبطهم حقاً ليس فقط على تحررهم من هذا الذل المدرسي.. وإنما أيضاً على تحررهم من أداء الواجبات المدرسية السخيفة.. التي نعجب كيف (تقسو) قلوب الأهل علينا فتحرمنا من مشاركة رفاق الشارع لعبهم البديع إلا بعد أدائها.. ونعجب أكثر لقسوتهم الأشد علينا حين ينتزعوننا انتزاعاً من حلقة الصغار الملتفة تحت عمود النور في الشارع تتبادل رواية الحكايات العجيبة والطرائف المثيرة لكي نأوي إلى فراشنا في وقت مناسب بدعوى الاستيقاظ مبكراً للذهاب للمدرسة اللعينة في حين يواصل (الأحرار)، سهرتهم البهيجة دوننا إلى

وقت متأخر! ولو أنك سألت طفلا في مثل ظروفي وقتها عن أمنية حياته لأجابك بلا تردد بأنها أن (يتفتح) عقل والديه ويتفهما جيداً (حقائق) الحياة ويتنازلا عن بدعة التعليم هذه التي تحرم أولادهما من كل هذه المنع البهيجة!

لكن هكذا جرت علينا المقادير.. ولم نكن في وضع يسمح لنا بالمقاومة، حتى بلوغ النصر! فرضينا بما لا حيلة لنا معه وتواصلت أيامنا. وفي ذات أصيل كنت ألعب مع بعض الرفاق الكرة أمام البيت فمرت بجوارنا طفلة صغيرة من سكان الجنوب في السادسة أو السابعة من عمرها، وهي تحمل طبقاً فارغاً، ويبدو من هيئتها أنها في طريقها لكي تشتري فيه الفول من الشارع الرئيسي، فما أن تجاوزتنا بقليل حتى توقفت وراحت تفتش في ملابسها، وفي الأرض عن القطعة المعدنية من فئة الخمسة قروش أو (الشلن) كما كنا نطلق عليها، التي أعطتها لها أمها لتشتري الفول، ويبدو أنها قد اكتشفت ضياعها أو سقوطها منها في الطريق ويئست من العثور عليها، وتمثلت ما سوف ينتظرها من عقاب بدني صارم من أمها إذا عادت إليها بالخيبة. فانفجرت فجأة في البكاء والولولة، ولم تكتف بهذا بل وصاحت أيضاً منادية أمها من اتجاه الجنوب وقالت لها فجأة وهي تصرخ وتولول: إن (فلاناً) - أي محسوبك - قد أسقط الشلن من يدها وهي في طريقها لمحل الفول فاختفى في التراب!

وذُهلت لهذا الاتهام الظالم.. وتعجبت له كثيراً وأنا الذي لم أقترب من هذه الطفلة ولم ألمسها ولا أعرف شيئاً عما فقدت.. وتساءلت مندهشاً:

- أنا يا فلانة؟

فأجابتني بإصرار غريب: نعم أنت!

كيف ياربي وقد كنت منهمكاً في اللعب مع رفاقي ولا شأن لي بهذه الطفلة، ولماذا تخصني أنا وحدي بهذا الاتهام وحولي عدد لا بأس به من رفاق اللعب؟ لم أفهم ذلك أبداً ولم أستوعبه في حينه، واعتبرت المسألة (مسألة شرف) ولابد لي من الانتصار فيها ودفع هذا الاتهام المجحف عني، وقبل أن أتخذ أية خطوة للدفاع عن نفسي، وجدت أم الطفلة تقترب ساحبة إياها في يدها وهي تعنفني بصوت (أوبرالي) على إضاعة هذا الشلن بعبثي ورعونتي في يد طفلتها الجادة الملتزمة، فانبريت أدافع عن نفسي وأقسم لها بأغلظ الإيمان على براءتي مما تتهمني به ابنتها، واستشهدت برفاق اللعب فأيدونني جميعاً في ذلك، لكن هيهات أن تقتنع الأم إلا بما قالته لها ابنتها، وبدأ صوتها يعلو أكثر وأكثر وبدأت أنا أجن لهذا الاتهام الفاجر.

وعرضت على الأم أن أرجع للبيت لإحضار مصحف شريف أقسم عليه بأنني لم أضع هذا الشلن المنحوس.. وتحمَّس الرفاق لاقتراحي.. وتصورت أن ذلك سوف ينهي القضية بسلام ويخرجني منها مرفوع الرأس محفوظ الكرامة فإذا بي أتلقي (طعنة غادرة)، من آخر إنسان في الوجود أتوقع منه أن يخذلني في هذا الموقف العصيب وينضم فيه إلى خصومي بدلاً من الدفاع عني وهو أمي! فلقد فوجئت بها تتدخل في الحديث من شرفة البيت وتطيب خاطر أم الفتاة وتعتذر لها

عن شقاوتي ورعونتي وتشهد (شهادة الزور)، بأنها قد شاهدت كل شيء من البداية وأنني المسؤول فعلاً عن ضياع هذا الشلن، ثم تتبع ذلك بأن تلقي إلى أم الطفلة منديلاً ملفوفاً به قطعة معدنية من فئة الشلن، فتتناوله الأم وتفكه وتخرج القطعة منه، وتأخذها وترد إليّ المنديل وهي تنصحني لوجه الله بالكف عن مثل هذا العبث الذي يعرضني للمتاعب، ثم تسحب ابنتها في يدها وتمضي راضية، وأنا أكاد أنشق نصفين بالطول من الكمد والقهر والشعور بالخيانة والخذلان من جانب أمي لي.

وهرولت إلى البيت غاضباً ومطعون الكرامة.. وعاتبت أمي عتاباً مريراً على (خذلانها) لي بدلا من أن تدافع عني وتنصرني على من افترى عليَّ ظلماً، وسألتها كيف شهدت بأنها قد رأتني وأنا ارتكب هذه الجريمة، وهي التي لم تخرج للشرفة إلا حين سمعت صوت أم الطفلة (الحيّاني)، ولم أفهم شيئاً مما قالته لي تبريراً لموقفها المتخاذل، هذا مني وأنا في غمار معركة من معارك الشرف والكرامة! وظللت مكتئباً بقية النهار وشكوتها لأبي حين رجع من عمله في المساء ودافعت عن نفسي بحرارة أمامه فلم أعد أذكر من رد فعله لما قلته له وقتها سوى ابتسامته الهادئة وتأكيده لي بأنه يعلم عن يقين وكذلك أمي أنني بريء مما ادعته عليّ هذه الطفلة، لكن هناك ظروفاً أخرى تبرر لأمي من وجهة نظره ما فعلت وما ارتكبت في حقي من (خيانة)، وحاولت قدر جهدي أن أستوعب ما قاله لي بعد ذلك من أن هذه الطفلة ابنة قوم بسطاء يمثل (الشلن) وقتها بالنسبة إليهم شيئاً ذا بال، وأنها كانت قد عرفت جيداً أنها سوف تنال عقاباً قاسياً على إضاعته، فتلفتت حولها واختارت (ضحية)، تعرف أنها قادرة على دفع هذه الفدية البسيطة التي تفتدي بها نفسها من العقاب الذي ينتظرها فكنت أنا هذه الضحية، ولا شيء في ذلك.. ولا يحق لي أن أحزن أو أغتاظ إلخ!

وزادني هذا المنطق (الفاسد)، عجباً على عجب اورأيت فيه بعقلي الناضج ضعفاً وتخاذلاً لا يليقان بالشرفاء من الناس! وأنكرت على أبي وأمي في أعماقي هذا الضعف المخزي مع البغاة والظالمين! ثم مضت الأيام في طريقها المرسوم ومرت تحت الجسور مياه كثيرة وتقدمت في السن والتجربة فوجدتني كلما تقدم بي العمر أتفهم شيئاً فشيئاً حكمة، هذا الضعف والتخاذل من جانب أبويّ في هذا الحادث العابر، واكتشفت عناصر القوة فيه وليس الضعف، ووجدتني أسترجع موقفهما وكلماتهما بشأنه في مواقف عديدة فيما واجهت بعد ذلك من تجارب واختبارات، وعرفت يوما بعد يوم أن من مواقف الحياة ما لا ينبغي لك أن تستسلم فيه لشهوة الرغبة في الانتصار بأي طريق وإثبات سلامة موقفك لأن انتصارك فيها لا يشرفك كثيراً، ولأن هزيمتك فيها ربما كانت أشرف لك من الانتصار! وأنه أيضاً من مواقف الحياة مالا تشينك فيه الهزيمة أو التنازل عن حقك بنفس راضية لأن الهزيمة فيها لا تعني ضعفاً ولا تخاذلاً وإنما تعني تعففاً عن منازلة من هم أضعف منك، أو من لا يشرفك من الأصل الوقوف منهم موقف الخصم والتنازع معهم حول أمر هين من أمور الحياة حتى ولو كنت أنت على حق، وهم على خطأ!

إذ ماذا يعني لك مثلا (النصر) في نزاع تخوضه بينك وبين ذوي القربى أو الأشقاء أو شركاء الحياة السابقين أو الأصدقاء القدامى الذين تسببت بعض أمور الحياة في الاختلاف معهم؟

وماذا يضير الإنسان إذا تعفف عن منازعة أمثال هؤلاء ولو كان على حق في موقفه حفاظاً على أواصر القربى وعلاقات الأشقاء والأهل، واحتراماً لذكرى العشرة السابقة.. أو الصداقة القديمة.

إنه أشرف لك في بعض هذه المواقف أن تعترف كذباً بأنك قد (ضيّعت الشلن).. وتتجنب النزاع معهم وترضي نفوسهم بشيء قليل من المرونة والترفع عن الصغائر فتنأى بنفسك عن أن تقف موقف الخصم في نزاع علني مع من هو دونك.. أو مع من تربطك به أواصر الرحم والقربى، أو كانت تربطك به شركة الحياة السابقة أو الصداقة المنقضية.. فإذا كان ذلك (هزيمة) من وجهة نظر البعض فهو على الناحية الأخرى (انتصار)، لقيم إنسانية ومعنوية وعائلية جديرة بالتضحية من أجلها بشيء من حقوقك لو تطلب الأمر ذلك، وهو أيضاً تعفف عن منازلة من يسيء إليك أنت في المقام الأول، مجرد التنازع معهم علناً على شيء يمكن تسويته والحفاظ على بقية الروابط الإنسانية بشيء قليل من التضحية أو المرونة وقد وجدتني فيما بعد أوصي الآخرين ونفسي كثيراً بهذا المنطق (الفاسد) الذي أنكرته في طفولتي على أبي رحمه الله فأنصح قارئاً شكا لي من تعسف شقيقه واختلافه معه حول تقسيم الميراث، بأن يحاول الاستعانة بالأهل وحكماء الطرفين في حل النزاع بالطرق الودية، فإذا أعيته معه كل الحيل، فلا يلجأن بعد ذلك إلى القضاء لحسم النزاع، وليسلمن له بما أراد ولو كان ظالماً لأن مجرد وقوفه أمام شقيقه في ساحة القضاء لا يشرفه حتى ولو كان على حق بيّن، ولأن الله بعد ذلك وقبله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وإذا كان شقيقه سادراً في غيه فليسلم له بما ليس من حقه، ولن يبارك له الله فيه، ولسوف يعوضه ربه هو عنه بما هو خير وأبقى، واستجاب الرجل الفاضل لنصيحتي وعمل بها وسلم لشقيقه بما أراد وكان الخلاف أصلاً على تقسيم بعض أصول الميراث فحصل الشقيق الظالم على أفضله، وترك لشقيقه ما ظنه هُملا وخاسراً، فلم تمض سنوات حتى زارني نفس هذا القارئ وروى لي من أمر شقيقه الذي فاز بنصيب الأسد من التركة ما أكد لي من جديد أن عين السماء لا تنام، وروى لي من أمره هو ومن نعمة ربه عليه ما يشكر الله عليه آناء الليل وأطراف النهار، مؤكداً لي أنه ليس شامتاً في شقيقه وحاشاه أن يفعل ذلك، لكنه يشفق عليه من نفسه ومما جره عليه جشعه وطمعه وظلمه لشقيقه من هلاك وديون وأمراض وخسائر! وما ربك بظلام للعبيد!

وتكرر هذا الموقف معي مراراً وتكراراً في تجاربي مع القراء الذين يستشيرونني في أمرهم، وفي تجاربي الخاصة، ولم أندم قط على مشورتي للآخرين بهذا المنطق (الفاسد)، القديم ولا على العمل به في تجاربي الشخصية بل ووجدت فيما بعد في قراءاتي ما عمق لديّ هذا الفهم الصحيح للحياة الذي عجزت عن استيعابه في طفولتي، فقرأت للخليفة العباسي المأمون مثلاً كلمة غريبة يقول فيها: من

علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه! بمعنى أن من علامة الشريف أن يصمد للنزاع والصراع إذا تنازع مع من هو أقوى منه، وأن يتعفف عنهما إذا اختلف مع من هو أضعف منه أو أقل شأناً، ولأن الأشياء تعرف بأضدادها فمن علامة الخسيس أن يتخاذل ويستضعف أمام من هو أقوى منه، وأن يستأسد ويتجبر على من هو أضعف منه!

كما وجدت في قراءاتي أيضاً ما يضيف إلى ذلك إضافة أخرى ثمينة في قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الجبن الحقيقي والجرأة على الأخ أو الصديق، والنكوص عن العدو!

وفي قول فيلسوف الصين لو - تسي: قابل الرحمة بالرحمة.. وقابل القسوة بالرحمة أيضا!

فإذا كان الفيلسوف كونفوشيوس الذي كان معاصراً له لم يعجبه هذا الرأي وقال - بل قابل الرحمة بالرحمة.. وقابل القسوة بالعدل، فلقد كان كلاهما على حق فيما قال رغم ما يبدو لك من اختلافهما في الرأي، إذ كان لو- تسي رجلاً شعبياً فصاغ مبدأه هذا فيما يتعلق بحقوق الإنسان الشخصية، وكان كونفوشيوس رجل دولة وحاكماً لإقليم فنظر للأمر من زاوية المصلحة العامة وحقوق المجتمع.

فإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا لا تعترف معي بأنك قد ضيعت (الشلن) فيظنك الجاهل مهزوماً.. ويشهد لك العاقل بالنصر المؤزر ويعرف لك قدرك وشرفك وتعففك عن الدنايا، ويزداد لك احتراماً، وتزداد أنت رضا عن نفسك وسلاماً معها.. ومع الحياة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبرة.. وفتلة!

كنا في فجر الشباب وكان لي صديق طفولة فرقت بيننا الدراسة الجامعية حين غادرنا مدينتنا الصغيرة بعد الثانوية العامة، فالتحق هو بجامعة الإسكندرية والتحقت أنا بجامعة القاهرة.. وتواصلت الصداقة بيننا وتعمقت وأنهى كل منا دراسته، وأقام بشقة صغيرة جميلة في مدينته، فأصبحنا نتزاور في مواعيد شبه دورية فنقضي معاً بضعة أيام ليست من حساب العمر.

فإذا زارني في العاصمة تفرغت لملازمته منذ انتهاء عملي حتى الصباح التالي وذهبت إلى العمل وأنا أترنّح من آثار قلة النوم. وأتعجب لنفسي كيف استطعت العمل دون أخطاء مع أني في غاية الإرهاق، ويظل هذا هو شأني طوال أيام زيارته لي ومع ذلك فالأوقات سعيدة.. والضحك من القلب لكل لفتة وكل بادرة. والاستمتاع في قمته بكل شيء نتحدث فيه أو نمارسه، وحين يغادرني عائداً إلى عمله ومدينته أعوض ما فاتني من نوم خلال الزيارة، أما إذا زرته في الإسكندرية فلقد كنت أشفق عليه من أن تنتهي زيارتي له ذات مرة بفصله من عمله، فمواعيد عملي بالصحافة كانت تسمح لي بقدرٍ من المرونة والحرية أكبر مما تسمح به مواعيده وقد كان وقتها يعمل محاسباً بعقد مؤقت بإحدى الشركات في انتظار تعيين القوى العاملة.. وما أسهل الاستغناء عنه إذا تكررت أخطاؤه بسبب قلة النوم.. أو إذا تغيب عن العمل بغير عذر، لذلك فقد تنّبأت له (ببشرى)، مؤكدة هي أنه لابد سيفصل من عمله ذات مرة إذا لم يرتب إجازته في العمل مع إجازاتي حين أزوره، وظل هذا الهاجس رغم تندرنا به يهجس داخلي من حين لآخر، حتى اعتدت وأنا في زيارته، أن أفتح باب غرفة نومه في الصباح حين أستيقظ براحتي في الظهيرة، فإذا لم أجده في فراشه (اطمأننت)، إلى أن رزقه لم ينقطع بعد وأنه قد ذهب إلى عمله في سلام!.. ولا يطول الوقت حتى يرجع من عمله مصفر الوجه مرهقاً فيخطف ساعة أو بعض ساعة من النوم ثم نواصل (الاحتفال)! الاحتفال بماذا؟ لا أعرف على وجه التحديد.. فنحن في مهرجان دائم لا مناسبة له.. وحديث الذكريات الضاحكة متواصل، ولا هم لنا إلا الاستمتاع بصحبتنا وبمشاغبة صديق طفولتنا الثالث الذي يقيم في الإسكندرية أيضاً، ويبدو أكثر حرصاً منا على ألا يفقد عمله، فيختفي في أماكن سرية بضع ساعات كل يوم لينام ملء جفونه بعيداً عنا ثم يلحق بنا لمواصلة الاحتفال بمهرجان الصداقة الصافية والود المتبادل، والقلوب المحبة للحياة، وكثيراً ما أشرق الصباح علينا ونحن جلوس على أريكة على كورنيش الإسكندرية وأحدنا يروي للآخرين قصة انتهى الليل ولم تنته بعد، كما أننا في حالة (تحالفات) متغيرة باستمرار من يوم إلى يوم بل من ساعة إلى أخرى يتآمر فيها اثنان على ثالثنا لتوريطه في دعوة عشاء، أو إفطار.. أو مكايدته باسترجاع ذكرى معينة لا يحب استرجاعها ولا استمرار لتحالف أو (عداوة)، فحليفا الأمس قد يصبحان خصمين، بعد قليل حين تتغير التحالفات.. والنتيجة واحدة في كل الأحوال وهي مزيد من الاستمتاع بالصداقة الصافية والقلوب الخالية والمواقف الطريفة، وذات مساء التقينا نحن

الثلاثة وصديقي المحاسب (غاضب)، مني ويشكوني لصديقنا.. وأنا مبهور الأنفاس من الضحك وأحاول استرضاءه والدفاع عن نفسي وشرح موقفي عبثاً! والحكاية هي أنني استيقظت ذلك اليوم في الظهيرة بعد سهرة سعيدة مع الأحباء، ففتحت باب غرفة نومه (لأطمئن) على رزقه كعادتى خلال زيارتي له ففوجئت به ممدداً في فراشة وغارقاً في النوم ونحن في الظهيرة فماذا يقول لي (عقلي) المشوش من أثر النوم سوى أن (أمر الله)، قد نفذ وأنه قد فصل بحمد الله من عمله في اليوم السابق ولم يذهب إلى عمله هذا الصباح، لقد شاء له حظه العائر أن أسمع في نفس اللحظة وأنا بين النوم والاستيقاظ - وهذه الخواطر تلح عليّ – نداء أحد أصدقائنا المشتركين من الشارع فخرجت إلى الشرفة فإذا بالصديق يخاطبني من الشارع ويقول لي إنه مر بصديقي المحاسب في عمله فلم يجده فيه.. ولم يجد من زملائه من رآه أو سمع عنه شيئاً منذ أيام، فتحولت (الهواجس)، على الفور عندي إلى (يقين).. وصارحت صديقنا الواقف في الشارع بها وقلت له هامساً من شرفة الدور الثالث يبدو أنه قد حدث ما كنت أخشاه.. وفصلوه من عمله!

فلم يسمع صديقنا كلامي جيدا لحرصي على ألا أرفع صوتي أكثر مما يجب مراعاة لحرج الموضوع.. أو لعله سمعه وأراد أن (يستمتع) أكثر بما سمع فاستوضحني ما أقول فأعدت عليه ما قلت بصوت أعلى قليلاً: يبدو أنهم فصلوه! فلم يسمع جيداً أيضاً أو هكذا بدا لي ورجاني أن أرفع صوتي أكثر وأكثر وهو يضحك فلم أجد مفراً من الاستجابة لرجاء الصديق وكررت عليه الكلمة المفيدة من الجملة المقصودة.. وأكدت على مخارج الحروف وأنا أنطقها لكيلا أدع مجالاً لأي التباس في الفهم وقلت له (هامساً) بصوت مدوٍ:

- فصلووووه!

فإذا بي أسمع صوت صديقي المحاسب يأتيني من فراشه صارخاً: لم يفصلني أحد.. الله يخرب بيوتكم.. أنا في إجازة! ولكن بعد ماذا؟ بعد أن سمع الجيران كلهم في (همستي الخافتة) نبأ فصله من عمله بسبب عدم انتظامه في الذهاب إليه ونهض صديقي من نومه ساخطاً.. وصعد إلينا الصديق الآخر من الشارع وشاركني (مواساته)، وتخفيف وقع ذيوع الخبر الكاذب عليه وكلانا يؤكد له وهو يتكتم ضحكه أنه لم يسمعه سوى سكان العمارة والعمارات المجاورة فقط، وكلما ازداد سخطاً ازددنا نحن مرحاً.. ولوماً له لأنه لم يبلغنا بنبأ إجازته وانتقاله من مكتب الشركة الرئيسي الذي سأل عنه فيه صديقه إلى فرع آخر من فروعها.

وفي المساء انعقدت جلسة العتاب بحضور صديق طفولتنا الثالث.. وفُجع فيه صديقي المحاسب، من البداية حين ضحك للقصة، باستمتاع شديد بدلاً من أن يغضب لها كما توهم أنه سيفعل واضطر الصديق المحاسب في النهاية إلى الضحك من الموقف كله وقال وهو ينفخ من الغيظ أنه يسلم بحسن نيتي وقلقي عليه فيما قلت، لكنه (مغتاظ) فقط من (الإخلاص)، الزائد في مد حرف الواو في كلمة: فصلووه! لكي يفهم من لم يفهم أنه قد تعرض للفصل من عمله (فابتهجنا)،

أكثر بما قال وضحكنا له وأضيفت القصة إلى تراثنا الضاحك وتناقلناها عبر الخطابات.

أما أنا فقد تعلمت منها درساً ثميناً من دروس حياتي.. ووجدت له ترجمة أمينة في كلمة حكيمة لكاتب أمريكي يقول فيها: لا يكفي أن يكون الإنسان أميناً ونياته طيبة تجاه الآخرين بل يجب أن يكون أيضاً متمتعاً بحسن الإدراك والفهم.. لأننا قد نسيء إلى الآخرين بعدم الإدراك وبعدم الفهم أحياناً أكثر مما قد نسيء إليهم بالقسوة والظلم!

وهذا صحيح تماماً فلقد أسأت إلى صديقي هذا بعدم إدراكي لحساسية الحرج الشخصي في الموضوع وبعدم التحفظ أكثر مما أحسنت إليه باهتمامي بأمره!

ومع هذا الصديق نفسه شهدت حكاية أخرى بعد عامين أو ثلاثة تعلمت منها درساً آخر من دروس الحياة وأضفته إلى خبراتي العملية.. فلقد ساءت علاقته لأسباب لم أعد أذكرها بصاحب العمارة التي يقيم بها وبدأ كل منهما يكبد للآخر ويستدعيه لقسم الشرطة في ادعاءات مختلفة، وأحس صديقي المحاسب بحاجته إلى الحماية فوثق علاقته بوكيل نيابة شاب من معارفه البعيدين وأصبح يكثر من زيارته ومن دعوته للزيارة.. ويكثر من الحديث عنه وعن صداقته له مع البواب والسكان وصاحب العمارة ويردد اسمه دائماً متبوعاً بلقب بيه فيقول بلا مناسبة جاءني أمس فلان بيه وكيل النيابة أو كنت أمس في زيارة فلان بيه وكيل النيابة وهكذا كأنما يقول لمن يعنيه الأمر أنه إذا توسل صاحب العمارة بمعارفه من الشرطة لإيذائه، فسوف يجد من يدفع عنه هذا الاعتداء من أصحاب الشأن ورأيت وكيل النيابة هذا مع صديقي فيما بعد وكان شاباً مهذباً ومتزناً وكان صديقي يبالغ في مجاملته واحترامه إلى حد المغالاة في ذلك أملاً في مساعدته له عند الضرورة حتى اقترحت عليه ذات مرة مداعبا أن يرفع اللافتة النحاسية التي تحمل اسمه ووظيفته كمحاسب من باب الشقة ويضع بدلا منها لافتة أخرى مكتوباً عليها فلان الفلاني.. صديق فلان بيه وكيل بيه النيابة!.. إمعاناً في الاحترام للنيابة ورجالها! واستمر الموقف على ماهو عليه بينه وبين صاحب العمارة إلى أن كنا جميعا نحن أصدقاء الطفولة الثلاثة وصديقه الجديد فلان بيه وكيل النيابة في مسكنه ذات مساء ففوجئنا بطرق شديد على الباب، وفتحنا فوجدنا صاحب العمارة والبواب وشرطياً جاء يدعو صديقنا للذهاب إلى قسم الشرطة للتحقيق في بلاغ كيدي جديد مقدم من صاحب العمارة واحتد صديقي على صاحب العمارة.. فهجم كل منهما على الآخر يريد الاشتباك معه، وأسرعنا نحن بالحيلولة بينهما وتجاذبنا هذا بعيداً عن ذاك وتدافعنا جميعاً شمالاً ويميناً حتى استطعنا التفريق بينهما بصعوبة بالغة.. ثم دعونا صاحب العمارة ومن معه للتفاهم بالحسنى وإنهاء هذا النزاع الذي لا طائل تحته.. وقبل الرجل التفاهم إكراماً لنا وتعهد بأن يرضى بحكمنا في النزاع بينه وبين صديقي، وناشدت الجميع الهدوء وأن يشرح كل منهما مبرراته لما فعل فتنازعا على من يبدأ منهما الكلام.. وكادا يتشابكان مرة أخرى حتى نجحنا بجهد جهيد في تهدئة الموقف وإقناع صاحب العمارة بأن يسمح

لصديقنا بالكلام أولا فما أن همَّ وهو في قمة الانفعال والتوتر بأن يتحدث حتى فوجئ بصديقه وكيل النائب العام وكان جالساً إلى جواره يقول له هامساً:

- إبرة.. وفتلة!

فالتفت إليه صديقي المحاسب منصورا أنه يلفت نظره إلى شيء هام في موضوع النزاع المعروض وسأله بعصبية: ماذا تقول؟

فأجابه الآخر بنفس الهدوء والرزانة: إبرة.. وفتلة!

فلم يفهم شيئا وكرر عليه التساؤل: ماذا تقول؟

فأجاب وكيل النيابة في ثبات بأنه في حاجة إلى إبرة وفتلة ليخيط بهما زراراً انفرط من قميصه خلال عملية فض الاشتباك بين المتنازعين، لأنه لا يستطيع الخروج إلى الشارع بقميص (مفركش) بعد انفراط أحد أزراره على هذا النحو.

فإذا بصديقي المحاسب الذي طالما حرص على المبالغة في مجاملة وكيل النائب العام الشاب واحترامه، ينفجر فيه فجأة بلا مراعاة لأي اعتبارات ويقول له صائحاً بانفعال شديد.. وهل هذا وقته؟ وهل هذا ما تساهم به في فض هذا النزاع.. ألا تقول شيئاً؟ ألا تفعل شيئاً؟.. ألا؟

وبهت وكيل النيابة الشاب وغضب من صديقى غضباً هائلاً وانتفض واقفاً يريد الخروج ومغادرة الشقة.. فسددنا عليه الطريق ورجوناه ألا يستسلم للانفعال وأن يقدر لصديقنا الضغوط العصبية الشديدة الواقعة عليه في هذه اللحظة ولكن هيهات.. فلقد أحس وكيل النائب العام بأن كرامته قد جرحت.. وظل عابساً صامتاً طوال الجلسة ثم انصرف غاضباً وفترت علاقته بصديقي بعد ذلك..

وتأملت هذا الموقف بعد ذلك طويلاً.. وساءلت نفسي ألم يكن مطلب وكيل النيابة من صديقه عادلاً.. ومشروعاً.. وضرورياً؛ لأنه لا يستطيع فعلاً أن يغادر المكان بمظهر غير لائق به وبكرامة منصبه ووجدت الجواب دائماً أنه كان كذلك بالفعل!

إذن فلماذا ثار عليه صديقنا هذه الثورة الهائلة بل ولماذا استأنا نحن أيضاً من مطلبه هذا لحظتها؟

ووجدت الجواب في عبارة شبيهة بعبارة ذلك الأديب الأمريكي وهي: أنه لا يكفي أن يكون مطلبك عادلاً ومشروعاً لكي تناله أو تحصل عليه.. وإنما ينبغي أيضا أن تتخير الوقت المناسب الذي تتقدم فيه به إلى من يملك تحقيقه.. وإلا بدا طلبك له سخيفاً وسمجاً ومرفوضاً، وتلقيت الرد عليه.. كالصفعة! والمطلب كان مشروعاً مائة بالمائة.. لكن التوقيت كان خاطئاً أيضا مائة بالمائة.. فوقعت الأزمة بين الصديقين وفترت الصداقة مع أن النية كانت طيبة. والمطالب كانت عادلة.. لكن النية الطيبة وحدها لا تكفي فلابد أيضاً من حسن الإدراك وحسن الفهم وحسن اختيار الوقت الملائم لكل مقال، ولكل كلام..

ومازلنا نتعلم كل يوم من دروس الحياة وتجاربها التي لا بداية لها ولا نهاية.. وشكراً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحت المظلة!

تعلمت من ذكريات طفولتي البعيدة درساً عجيباً هو أن ابتعد عن (المشاهير)، وأن أتكتم أية صلة شخصية أو عائلية لي بهم إن وجدت؟

تسألني كيف؟ أجيبك بأنه هكذا قد علمتني التجربة المؤلمة وأنا طفل صغير! فلقد كان لمدينتي الصغيرة التي نشأت فيها فريق (شهير) لكرة القدم، كان أبطاله نجوماً تلمع في السماء في مخيلتنا.. وننظر إليهم نحن الصغار وكأنهم آلهة تمشي على الأرض! وقد كانوا بالضرورة يمشون في الأرض ليسعوا على أرزاقهم لأن الكرة وقتها لم تكن تعرف المرتبات والمكافآت وهدايا المشجعين، وكان الجميع هواة يعملون في حرفهم المختلفة.. أو يدرسون في مدارسهم، فكان من بينهم بائع الفاكهة في السوق و (الحداد) الذي يطرق الحديد الساخن بالمطرقة، ونجار الموبيليا.. وكهربائي المنازل.. والطالب بالمدرسة الثانوية.. أو بالمعهد الأزهري الثانوي.

وكان الجميع يمضون النهار في أعمالهم أو مدارسهم حتى إذا فرغوا منها توجهوا إلى ملعب المدينة الوحيد أو بالأحرى إلى (سوقها) المملوكة لشركة الأسواق الإنجليزية.. والتي تتحول كل يوم خميس إلى مكان لبيع وشراء الماشية. وفي الملعب يبدأ (الأبطال) في الثالثة من بعد ظهر كل يوم تدريبهم اليومي ويستمر حتى مغيب الشمس وحلول الظلام ولم تكن هناك تدريبات لياقة بدنية.. ولا تدريب على خطط اللعب ولا غير ذلك من هذه (التقاليع) الكروية الحديثة، وإنما كان التدريب عبارة عن مباراة حامية بين فريقين من اللاعبين تستمر 3 ساعات على الأقل وتنتهي بمنافسة بين اللاعبين على التسديد على المرمى، ونحن الأطفال نتحلق حول الملعب واقفين حيث لا توجد مقاعد ولا أماكن للجلوس، نتابع (التدريب)، باهتمام شديد وترقب (الآلهة الأبطال)، بانبهار ونستجدي منهم بعد نهاية اللعب كلمة أو إشارة تظهر للآخرين معرفتهم الشخصية بأحدنا لكي يتيه بها فخراً بين الرفاق!

ويستمر هذا البرنامج اليومي إلى أن يجيء موعد المباراة المنتظر كل أسبوعين أو ثلاثة.. ونترقب نحن هذا الموعد التاريخي بصبر نافد.. ونتلمس مقدماته ومؤشراته السعيدة بلهفة شديدة، وكانت هذه المقدمات تبدأ دائماً بفرقة من كناسي البلدية تقوم بكنس الملعب وإزالة روث الماشية ومخلفات السوق منه، ثم يجيء اثنان أو ثلاثة من (الأبطال) أنفسهم صباح يوم المباراة وهم يحملون جرادل مملوءة بالجير الأبيض ليقوموا بإعادة تخطيط الملعب ورسم دائرة السنتر ومنطقة الجزاء، وتركيب الشباك في المرميين العاريين.

ثم يجيء عمال الفراشة فيقيمون على جانب خط التماس في منتصف الملعب سرادقاً أو مظلة كبيرة.. ويضعون المقاعد المؤجرة من محل الفراشة استعداداً لاستقبال كبار شخصيات المدينة الذين سيشاهدون المباراة، وكان في مقدمتهم دائماً مأمور الشرطة وضباطه وقاضي المدينة ووكلاء النيابة وطبيب المستشفى

ومهندس البلدية وأعيان البلدة من كبار الملاك والتجار، وهؤلاء سوف يشاهدون المباراة جلوساً فوق المقاعد تحت المظلة التي تقيهم من لهب الشمس.. بل أنهم أيضاً - ويالللحظ السعيد - سوف توزع عليهم زجاجات الكوكاكولا المجانية بين الشوطين مثلهم في ذلك مثل لاعبي الفريقين الذين سيمضون فترة الراحة بين الشوطين في أرض الملعب لأنه لا مكان آخر لذلك.. ولا غرف لخلع الملابس ولا حمامات للاعبين!

أما (العامة)، من أمثالنا وباقي سكان المدينة فلسوف يشاهدون المباراة وقوفاً حول الملعب من كل الجوانب.. وبلا أدنى تعب أو كلل من الوقوف الطويل لساعتين أو ثلاث ولا مشكلة في ذلك، وإنما ستكون المشكلة الحقيقية هي مشكلة حكم المباراة الذي سيقاسي الأمرين طوال المباراة لإبعاد الجمهور إلى ما وراء خطوط التماس، وسيستعين في ذلك بخيالة الشرطة عدة مرات، فيستجيب الجمهور كل مرة ويرجع للخلف بضع خطوات ثم لا يلبث أن ينسيه حماسه حدود الملعب فيعود لاجتيازها ومشاهدة المباراة من داخل الملعب وليس من خارجه حتى ليحتاج اللاعب الذي يرمي رمية التماس إلى إرجاع المشجعين بضع خطوات للوراء كل مرة!

ولا بأس بذلك.. فالسيطرة على الجمهور المتحمس بجنون للكرة ولفريق بلده (الشهير)، مستحيلة.. ونحن في الملعب منذ الصباح الباكر وقد تعلمت من درس التجربة أن أجر ورائي مقعداً من البيت إلى الملعب لأجلس عليه بين الواقفين كما يفعل بعض الأعيان الذين لا مكان لهم تحت المظلة.. واللحظة الحاسمة ستأتي حين يصل إلى الملعب موكب الأبطال الفاتحين وهم بملابس اللعب ومعهم الكرة والحكام ولاعبو الفريق الضيف وهو غالباً من إحدى المدن المجاورة، والنادي الرياضي الذي يلعب هؤلاء الأبطال له اسمه (نادي فاروق الرياضي)، على اسم فاروق الأول ملك مصر قبل ثورة يوليو 1952، ومقره شقة أرضية من غرفتين ببيت قديم بالطرف الآخر من المدينة، والنظام المتبع هو أن يخلع اللاعبون أصحاب الأرض والضيوف ملابسهم فيه ويرتدوا ملابس اللعب ثم يسيروا على الأقدام من مقر النادي إلى الملعب وسط (زفة) كبيرة من أطفال المدينة والمشجعين تجوب شوارع المدينة وأسواقها وسط تشجيع الباعة الجائلين وعمال المحال حتى تصل للملعب، ولا سيارات أتوبيس مكيفة الهواء تنقلهم إلى أرض المباراة ولا أي شيء آخر من هذه (الخزعبلات) الحديثة.

وبوصول الأبطال إلى أرض الملعب يرتفع حماس الجمهور الواقف إلى السماء ويبدأ التشجيع الجنوني للاعبين خلال التسخين.. ثم تبدأ المباراة ويقف مساعدا الحكم وسط الجمهور الواقف على الخط أو في (أحضانهم)، بمعنى أصح، وهما دائماً من أنصاف الآلهة لأنهم لاعبون قدامى، أما (الراية)، التي يشيران بها للحكم خلال المباراة فهي المنديل الأبيض الخاص بكل منهما وهما يشيران به لاحتساب الأخطاء عند اللزوم ويجففان به عرقهما باقي الوقت!

أما الحكم فهو غالباً موظف الإسعاف بالمدينة وهو لاعب كرة سابق أيضاً وشديد العصبية ويخشاه الجميع.

ثم تبدأ المباراة ويبدأ معها حماس الجمهور في التصاعد شيئا فشيئا حتى يصل إلى حد الجنون. وفي كل الأحوال فلا مفر من الفوز أو التعادل على الأقل أما الهزيمة فعار لا يمكن القبول به وقد تؤدي إلى كارثة أمنية يطيح خلالها خيالة الشرطة في الجمهور الغاضب لتفريقه أو لإبعاده عن لاعبي الفريق الضيف حتى لا يفتك بأحدهم!

ومع كل ركلة قدم تتصاعد أهات الاستحسان وعبارات التشجيع من الجمهور الذواقة لفنون اللعب.. وحين يتصدى (بُرهامي) نجم خط الدفاع لهجوم (الأعداء)، ويفسده ويبعد الكرة بقوة عن منطقة الخطر تتعالى صيحات الجمهور بانفعال شديد: يا ولد.. يا دكر!

وحين يرتمي حارس المرمى (الحداد) محمد حسن على الكرة ويقتنصها من بين أقدام المهاجمين أسمع من يقسم بأن محمد حسن هذا راضع من ثدب أمه حتى الشبع وليس من أبناء جيل اللبن الصناعي الهش!

وحين يجري الشيخ عبد العزيز بالكرة يثير عاصفة من الاستحسان والضحك في نفس الوقت للتناقض الواضح بين بدانته وقصره وبين سرعته الفائقة في الجري، فأسمع بين الجمهور من يقسم بأنه أسرع لاعب في مصر وأنه لو كانت الأمور تجري بالعدل لكان أبرز لاعبي منتخب مصر!

أما حين يتلقى نجم الهجوم نجار الموبليات يونس الكرة ويراوغ المدافعين أمام المرمى فقد كان حماس الجمهور يصل حقاً إلى حد الهوس واسمع من يقسم بالطلاق بأن يونس هذا لم تسحب ولاّده طفلاً مثله من بطون الأمهات!.. وسواء نجح يونس في التسجيل أم أخفق.. فهو موضع إعجاب الجميع.. ولابد أن ينال منهم عبارات الاستحسان والتمجيد!

لاعب واحد فقط في الفريق كان لسوء حظه وحظي معه لا ينصفه الجمهور المتحمس أبداً ولا يعفيه أبداً من اللوم والسخط والسب واللعن طوال المباراة أجاد أم أخفق، وكان هذا اللاعب هو سبب عقدتي الطفولية من (المشاهير) وقرابتهم! فقد كان ابن عم أبي وكان ضئيل الجسم ضعيف البنية، ومن أولئك اللاعبين الذين لا يبذلون جهداً كبيراً في الملعب ومع ذلك يتمسك بهم المدربون لارتفاع مهاراتهم الفنية ولقدرتهم على اقتناص هدف في أية لحظة من المباراة يغفل فيها عنه الدفاع. وهذا النوع من اللاعبين يحظى غالباً بسخط الجمهور وغضبه، لأنه بسبب حرفيته ومهاراته العالية يصنع لنفسه فرصاً عديدة للتسجيل، وبسبب ضعف لياقته فقد يضيعها تباعاً. ولا ينجح في التسجيل إلا بعد أن يكون قد نال من سباب الجمهور ما لا يمسح عنه (عاره) تصفيق المشجعين للهدف الذي أحرزه!

وحين شاهدت أول مباراة يشارك فيها قريبي هذا الذي كان يلعب دائماً في مركز الجناح الأيمن حرصت على انتهاز أول فرصة لإعلان قرابتي له للجمهور الواقف حولي مترقباً ما سوف أناله من احترام وتكريم يليق بمن ينتسب بصلة القرابة لأحد هؤلاء (الآلهة) المحبوبين، ولم ألحظ لغفلتي نظرات السخرية المكتومة في

عيون من تفاخرت أمامهم بقرابتي له.. أو لم أفهمها بمعنى أدق.. ثم لم تمض دقائق على المباراة حتى بدأ قريبي النجم يضيع فرص التسجيل واحدة وراء الأخرى وبدأ الواقفون من حولي ينهالون عليه بأفحش السباب دون مراعاة لمشاعري ولا لقرابتي لهذا (الإله)، الذي تصورت أن الانتساب إليه شرف ما بعده شرف، فشعرت بحرج شديد وخجل أشد وتبخر من نفسي إحساس الفخر والاعتزاز مع تصاعد السباب واللعنات، وزاد من حرجي وخجلي أن الجمهور كان يسب هذا اللاعب بلقب الأسرة الذي أشاركه فيه وليس باسمه الأول وتضرج وجهي بالاحمرار حين سمعت أحدهم يصيح بأعلى صوته: خربت بيتنا يا مطاوع الله يخرب بيتك يا بن، فتلفتّت حولي محاذراً أن يكون من بين الواقفين أحد من أصدقاء الطفولة حتى لا يراني في هذا الموقف (العصيب)! ولسوء حظي فقد لازم النحس قريبي النجم طوال هذه المباراة بشكل عجيب فازدادت جرعة الشتائم والسباب الفاحش إلى ما لا نهاية ولم أجد مفراً من الانسحاب فتسللت من المكان الذي أجلس فيه ساحباً ورائي مقعدي إلى موقع آخر من الملعب لا يعرف فيه أحد (سري) هذا ولم يكن الحال في الموقع الجديد بأحسن منه في القديم، فلقد تواصلت عبارات السباب الفاحش حتى ندمت على مجيئي للملعب من الأصل، وتوهمت أن الواقفين حولى سيفتكون بي لو عرفوا صلتي العائلية بهذا اللاعب.. ودعوت الله من أعماقي أن يفك نحسه لكي أسترد بعض كرامتي الضائعة. واستجابت السماء لتوسلاتي الصامتة فنجح قرب نهاية المباراة في تسجيل هدف التعادل وهاج الجمهور فرحاً وانفعالاً ورقصاً فتأهبت لأن أبوح للواقفين حولي بالسر العائلي الذي تكتمته عسى أن أسمع كلمة تشجيع أو استحسان ترد عليّ بعض كرامة أسرتي الجريحة، فإذا بأحدهم يصيح بأعلى صوت: كفارة يا مطاوع.. كفارة يا بن..! يقصد بذلك أنه قد كفر بهذا الهدف عن بعض خطاياه خلال المباراة وليس عن كلها، وأن هدفه الذي تصورت أنه سيعيد الود المفقود بينه وبين الجمهور لم يمح جرائمه السابقة، فانكتمت في موقعي وازددت انكماشاً وتخاذلاً ورجعت إلى بيتي أجر أذيال الخيبة وتجنبت الحديث عن المباراة وما جرى فيها مع أصدقاء الشارع.. وتعجبت حين جاء هذا اللاعب بعد ذلك بأيام لزيارة أبي وبدا واثقاً من نفسه، كيف لم يستشعر كل هذا السخط الجماهيري عليه وكيف يرضى لنفسه وعائلته، بهذه (المهانة)!

رغم حبي الشخصي لهذا القريب فقد تعلمت من (المحنة)، بنفسية طفل صغير أن (مجابهة الجماعة ليست من الحكمة)، كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مذكراته، وتعلمت ألا أفخر بقرابة أي إنسان ما لم أتأكد من قبول الآخرين له ونيله رضاهم، وظللت طوال طفولتي وصباي أشهد مباريات فريق الآلهة بغير أن أشير من بعيد أو قريب إلى صلتي العائلية بأحد نجومه رضي عنه الجمهور أم سخط، ثم هجرت مدينتي الصغيرة هذه وأنا دون السابعة عشرة لألتحق بجامعة القاهرة وتخرجت وعملت بالصحافة واستقرت حياتي بالعاصمة القاهرية فإذا بي أقرأ ذات يوم خبراً عن عودة فنان شاب اسمه كرم مطاوع من بعثته الدراسية في إيطاليا وبدئه نشاطه الفني في السينما والمسرح والتليفزيون فاستيقظت الذكريات القديمة فجأة في أعماقي وقلت لنفسي: تاني! قريب آخر من المشاهير يتعرض

لرضا الجمهور على عمله أو سخطهم عليه وأسمع (بأذني) عبارات الاستحسان أو اللعن له!

لكن خبرة السنين كانت قد علمتني شيئاً ثميناً آخر هو أن الشخص العام، الذي يطرح عمله على الآخرين لابد أن يخضع لأحكامهم عليه وتقييمهم لعمله بغير أن يثير ذلك أية حساسيات شخصية أو (عائلية) لأحد، ولا غرابة في ذلك لأنه قد ارتضى من البداية بخروجه من دائرة المغمورين إلى دائرة المعروفين أن يكون كل شيء في عمله بل وحياته الشخصية أيضاً قابلاً للنقد أو الاستحسان، فيصبح من حق الآخرين أن يعجبوا به أو يلعنوه دون أن تشعر أنت بالفخر الشخصي لإعجابهم، ولا (بالعار العائلي) للعناتهم ولو كنت قد أدركت هذه الحقيقة في طفولتي لما أفسدت على نفسي متعة مشاهدة مباريات فريق الآلهة بتأثري بلعنات الجمهور لقريبي الجناح الأيمن المسكين رحمه الله، ولا كنت قد كتمت قرابتي له على أصدقائي الصغار بضع سنين.

وأيا كان السبب في تخلصي من آثار هذه العقدة الطفولية، فلقد اعتززت دائماً بفن الفنان كرم مطاوع ابن عم أبي وإن كنت لم أكتب كلمة واحدة عنه أو عن أعماله الفنية التي تنال إعجابي دائماً طوال ثلاثين سنة أو أكثر.. ربما استشعاراً للحرج الشخصي من أن أكتب عنه وهو قريبي فيتشكك البعض في موضوعية ما أكتبه عنه وحيادة.. وربما تأثراً (بالعقدة) القديمة التي أورثني إياها ابن عمه لاعب الكرة القديم رحمه الله.. الله أعلم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقطة تحول!

في حياة كل إنسان منا لحظة أو لحظات قدرية غيّرت من حيث لا يحتسب - مجرى حياته أو كان لها أبلغ الأثر فيما اتخذ من طريق بعد ذلك في الحياة، قد تكون هذه اللحظة موقفاً استفز فيه شرارة التحدي، وقد تكون كلمة شاردة سمعها فوقعت من نفسه موقعاً أعمق كثيراً مما بدا للآخرين، وقد تكون إنساناً التقى به على غير انتظار فكان لهذا اللقاء الطارئ أبعد الأثر في شخصيته وأفكاره.. ورؤيته للحياة، فإذا توقف بعد سنوات طويلة ليراجع حياته ذات يوم، استطاع أن يقول صادقاً عن تلك اللحظة، إنها كانت نقطة تحول أساسية في حياته، وربما تساءل أيضاً: ترى في أي اتجاه كان يمكن أن يمضي طريقي في الحياة لو لم أستمع إلى هذه العبارة الشاردة، أو لم ألتق بهذا الإنسان.. أو لم يستفزني ذلك الموقف؟

ولأنني من هواة قراءة السير الذاتية للمفكرين والعلماء الناجحين في كل مجالات الحياة، وأجد فيها دائماً ما أستفيد به فقد اعتدت - خلال قراءاتي لقصص حياة هؤلاء المشاهير - أن أتوقف دائماً أمام نقطة التحول هذه في حياتهم.. وأتأملها طويلاً متعجباً من تصاريف القدر، ومجدداً إيماني الدائم بأن للأقدار، دائماً كلمتها العليا في حياة الإنسان، وأنه ليس للمرء إلا أن يعمل بإخلاص ويكافح بإصرار في الحياة، وعليه أن يدع بعد ذلك أمره لخالق الكون يصرفه كيف يشاء.

خذ مثلاً ما رواه الأديب والفيلسوف الراحل الدكتور زكي نجيب محمود عن حياته في كتابه العذب (قصة نفس)، لقد كان صبياً ضعيف النظر يعاني أشد المعاناة من ضعف إبصاره، ومع ذلك فهو يواصل دراسته الابتدائية بلا كلل.. وبلا تفوق أيضاً، ثم حدث ذات يوم وهو في الرابعة عشرة من عمره أن جاء صديق لأبيه لزيارته، فجلس الصديقان يتجاذبان أطراف الحديث في شئون الحياة المختلفة، والصبي الصغير يتحرك في الجوار بحيث يسمع ما يقولان، فإذا الصديق ينصح الأب نصيحة مخلصة بأن يكف عن تعليم ابنه هذا بالمدارس لأن ضعف إبصاره سوف يحرمه من فرصة التعيين ذات يوم في وظائف الحكومة، وهي هدف التعليم الوحيد في رأيه، فإذا لم يكن من سبيل إليها ذات يوم فما معنى العناء في الدراسة.. وما معنى الإنفاق على تعليم هذا الفتى في المدارس الحديثة؟. ولقد كانت وجهة نظر هذا الصديق (منطقية) من الناحية النظرية وكان من غير المستبعد أن يستجيب لها الأب.. أو يسلم بها الفتى نفسه بعد قليل وهو يعاني ما يعانيه من ضعف النظر خلال دراسته، لولا أن هذه النصيحة نفسها كانت هي نقطة التحول الأساسية في حياة الدكتور زكي نجيب محمود وقد كتب عنها وعن هذه (اللحظة)، بعد خمسين عاماً أثرى خلالها الحياة الفكرية في بلده والوطن العربي كله بالعديد من المؤلفات الأدبية والفلسفية فقال: (فإذا بهذه النصيحة تؤلمني أشد الألم.. وبدلاً من أن تكون سبباً في إحباطي وتثبيط عزيمتي إذا بها تصبح حافزاً لي على مضاعفة القراءة لكي أثير الغيظ في نفس قائلها، حتى أصبحت القراءة من حياتي بمثابة الروح من الجسد)، وواصل الفتى دراسته

بتفوق حتى تخرج في الجامعة وأوفد في بعثة إلى بريطانيا وحصل على الدكتوراه في الفلسفة وأصبح من أكبر وأشهر أساتذتها بالجامعات العربية.

وخذ أيضاً ملحمة كفاح أستاذة الأجيال الدكتورة عائشة عبد الرحمن مع التعليم وقد تعددت اللحظات القدرية فيها، ابتداءً من رفض أبيها الشيخ التحاقها بالمدرسة الأولية بدمياط، حتى استعانت عليه والدتها بشيخه وإمامه في التصوف الذي لا يرد له كلمة، فقبل كارهاً التحاقها بالمدرسة بعد تجاوزها سن القبول ببضع سنوات إلى اصطحاب أمها لها من دمياط إلى المنصورة لكي تحاول إلحاقها بمدرسة المعلمات هناك، فترفض المدرسة لتجاوزها أيضاً السن المقررة، وبدلاً من أن ترجع الأم يائسة إلى مدينتها إذا بها تتجه إلى محل صائغ في المنصورة تبيع فيه أسورتها الذهبية ثم تصطحب ابنتها المنذورة للعلم والفقه والأدب بغير أن تدري، ونتوجه إلى القاهرة لتحاول إلحاقها بمدرسة حلوان.. إلى أداء بنت الشاطئ لامتحان الكفاءة سراً بغير علم أبيها من منازلهم فتجيء الأولى على القطر كله وبفارق 150 درجة عمن يليها في الترتيب.. إلى استجابتها لنصيحة الممتحنين لها بالاتجاه إلى التعليم الحديث لكي تستطيع الالتحاق بالجامعة ذات يوم، وكان ذلك يتطلب منها معرفة اللغة الإنجليزية التي لا تدري عنها شيئاً، فتجهد نفسها في محاولة دراستها، وتدخل امتحانها وهي تعتمد اعتماداً أساسياً في ذلك على موضوع الإنشاء الذي حفظته عن ظهر قلب وكان عن كتاب (السندباد البحري)، ويبدأ الامتحان، فإذا بها تنسى معنى كلمة (نسر) بالإنجليزية، وهي كلمة تتردد كثيراً في الموضوع، فتسلم باليأس من اجتياز الامتحان، وتحقيق أمل الالتحاق بالجامعة ذات يوم، فإذا عينها تقع عرضاً على قلم الرصاص الذي تستعين به في تسطير الإجابة فتجد عليه كلمة نسر باللغة الإنجليزية EAGLE أنها علامته التجارية، وإذا غيوم اليأس تنقشع فجأة فتعود لمواصلة الإجابة بحماس وابتهاج وتنجح في الامتحان، وتواصل طريق التعليم الحديث حتى نهايته، ثم تكتب بعد 60 عاماً أو تزيد عن هذه اللحظة القدرية في حياتها، فتقول: إنها لم تكن تعرف ماذا يدفعها إلى طريق الجامعة وهي الغريبة تماماً على بيئتها الأزهرية لكنها - وبعد هذه المسيرة الطويلة في الحياة - تعرف الآن جيداً ما الذي كان يدفعها إليها.. وهو أن تلتقي فيها بقدرها الذي ينتظرها في رحاب الجامعة وهو أستاذها ومعلمها وزوجها ووالد أبنائها الأستاذ الإمام أمين الخولي أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب - رحمه الله - والذي حصلت - كما تقول هي - (برعايته على الماجستير والدكتوراه عن أبي العلاء المعري ورسالة الغفران، وتعلمت عنه منهجه السليم في البحث والنظر العلمي في القرآن).

ترى في أي اتجاه آخر كانت ستمضي حياتها لو لم تقع عينها عرضاً على كلمة (نسر) بالإنجليزية على مؤخرة قلم الرصاص الموضوع أمامها على مائدة الامتحان؟

خذ أيضاً قصة حياة الشاعر المعروف باسم (أبو همام)، والأستاذ الجامعي بكلية دار العلوم الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم، لقد كان مقدراً له أن يواصل طريق

التعليم الأزهري حتى نهايته ويصبح ذات يوم أستاذا أو شيخا لأحد المعاهد الدينية، لكنه كان إلى جانب دراسته الأزهرية - يقرض الشعر ويهوى الأدب، فقربه إليه أحد أساتذة المعهد النموذجي للأزهر الذي يدرس به وهو الأستاذ محمد خليفة التونسي وشجعه على كتابة الشعر، وكان التونسي من مريدي الأستاذ العقاد ومن رواد ندوته الأسبوعية صباح كل جمعة، فاصطحبه ذات يوم إلى ندوة العقاد.

وقدمه إليه وشجعه على أن يسمعه بعض أشعاره، فتهيب الفتى أن ينشد شعره أمام العقاد، ثم استجمع شجاعته في النهاية وأنشده إحدى قصائده فطرب لها العقاد وأثنى عليها ثم سأله عرضاً بطريقته المألوفة في الكلام:

أين تدرس يا مولانا؟

وأجابه الفتى بأنه يدرس بالمعهد النموذجي للأزهر تمهيداً للالتحاق بكلية الشريعة، فإذا العقاد يقول له في هدوء: أدخل دار العلوم يا مولانا!

وإذا هذه النصيحة العابرة تغير مجرى حياة هذا الشاب تغييراً جذرياً فيحسم الصراع المحتدم في نفسه بين ميله المكتوم لدراسة الأدب، وبين توجهه الطبيعي لدراسة الفقه والشريعة، فيقرر الالتحاق بدار العلوم بالفعل، ويمضي سنواته الأولى بها منصرفاً إلى الشعر أكثر من انصرافه للدراسة وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى بلا تفوق، إلى أن يجئ عامه الجامعي الأخير، فيحثه أساتذته على الاجتهاد لكي يعين معيداً بالكلية، ويستجيب للنصيحة لكيلا يفارق بيئة دار العلوم التي وجد فيها نفسه ويتخرج متفوقاً ويعين معيداً بالكلية ويوفد في بعثة إلى إسبانيا ويتعلم الفرنسية والأسبانية ويحصل على الدكتوراه في الأدب المقارن، وينظر إلى حياته الآن بعد 40 عاماً أو أكثر من هذا اللقاء الأول مع العقاد فيجدها قد تغيرت من حال إلى حال، ومن طريق إلى طريق آخر مخالف تماماً لما كانت تنبئ به البدايات، ويجد السر في كل ذلك هو تلك اللحظة القدرية التيأنطقت أستاذه العقاد بهذه الكلمات المقتضبة: أدخل دار العلوم يا مولانا!

أما الأديب المحقق والمؤرخ العظيم أحمد أمين الذي أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات القيمة وأشهرها سلسلة فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، فلقد جاءته هذه اللحظة القدرية التي غيرت مسار حياته في أحد مقاهي القاهرة ذات أصيل وهو يجالس أستاذه أحمد بك أمين، وكان من كبار رجال التعليم في زمانه ويحمل أيضاً نفس الاسم! وكان (الشاب) أحمد أمين قد نشأ أزهرياً وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي وعمل معيداً بها، فكان يُلقي على طلبته دروس علم الأخلاق معتمداً في ذلك على مذكرات ترجمها عن الإنجليزية أستاذه وعميد المدرسة عاطف بركات، لأنه لا إلمام له بأية لغة أجنبية، ثم حدث أن التقى بصديقه وأستاذه أحمد بك أمين ذلك اليوم في أحد المقاهي فراحا يتسامران، وأشار أحمد بك في حديثه عرضاً إلى أنه قد عثر على كتاب باللغة الإنجليزية لمستشرق أمريكي اسمه (ماكدونالد)، عن التاريخ الإسلامي ونظام الحكم في الإسلام والفقه الإسلامي، وأنه كتاب قيم ومنصف للإسلام، فإذا هذا

الحديث العارض يستثير مشاعر الشاب أحمد أمين ويجدد أزمته مع نفسه وهو يرى زملاءه من أساتذة العلوم الحديثة بمدرسة القضاء يستفيدون في إعداد محاضراتهم بما يقرأون في المراجع الإنجليزية والفرنسية في حين لا يعرف هو إلا المراجع المترجمة وإذا هذه اللحظة يكون لها أبلغ الأثر في حياته فيكتب عنها بعد أربعين عاماً في كتابه الممتع (حياتي)، فيقول: فاستفزني الموضوع وقلت لأحمد بك أمين: هل تستطيع أن تذهب معي الآن إلى المدرسة (برليتز) لأرتب دروساً لي في الإنجليزية فقبل وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته وذهبنا إلى المدرسة ورتبنا دروسا ثلاثة بمائة وخمسين قرشا في الشهر، واشتريت الكتاب الأول وتولت تعليمي سيدة إنجليزية يظهر عليها أنها فقيرة الحال، وبذلتُ في ذلك مجهوداً شاقاً فكنت أقرأ في البيت وأحفظ في الطريق وأذاكر إذا كنت مراقباً في الامتحان، أو مشرفاً على حصة ألعاب رياضية ثم وقفت بعد ذلك إلى سيدة إنجليزية أخرى كان لها أعظم الأثر في نفسي وكانت مس (بور) في الخامسة والخمسين من عمرها ومثقفة وفنانة وتوثقت الصلة بيننا فكأنني كنت من أسرتها ولم تكن تعني بي من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب، بل تشرف أيضاً على سلوكي وأخلاقي، وقد لازمتها أربع سنوات استفدت خلالها كثيراً من عقلها وفنها، ولكنني لا أظن أنني استفدت كثيراً من تكرارها على مسمعي أن أتذكر دائماً أنني شاب!

فماذا كنت لو لم أجتز هذه المرحلة؟ لقد كنت ذا عين واحدة يقصد ثقافة عربية واحدة، فأصبحت ذا عينين، عربية وأوروبية، وكنت أعيش في الماضي فصرت أعيش في الماضي والحاضر، فأنا مدين في إنتاجي الضعيف في الترجمة والتأليف والكتابة لهذه المرحلة بالذات بعد مراحلي الأولى.

ولقد كانت الشرارة الأولى لهذه المرحلة في حياته وما تلاها من مراحل بلغ خلالها كرسي الأستاذية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، ثم كرسي العمادة بنفس الكلية ومنصب مدير إدارة الثقافة بالجامعة العربية فضلاً عما أصبح له من شأن أدبي وفكري لا يقارن به أي منصب، كانت الشرارة الأولى في كل ذلك هي جلسة المقهى تلك وحديث أستاذه العارض فيها عن كتاب ذلك المستشرق الأمريكي!

وشبيه بذلك أيضاً ما رواه عميد الأدب العربي طه حسين في رائعته (الأيام)، حين بدأ يتحول عن الأزهر يائساً من نيل شهادة العالمية وراح يختلف إلى الجامعة المصرية القديمة ويستمع إلى محاضراتها كمستمع حر، فلقد كان يحتاج دائماً إلى من يصطحبه إلى الجامعة، وكان حرسها يرفض دخول غلامه معه فيتسابق زملاؤه إلى أن يأخذوا بيده إلى قاعة المحاضرات، وكان أكثرهم حرصاً على ذلك صديقاً أزهرياً له.. فأخطأ قيادته ذات مرة إلى قاعة المحاضرات الصحيحة، ودخل به خطأ محاضرة عن الأدب الفرنسي باللغة الفرنسية ولم يكن الاثنان يعرفان منها حرفاً واحداً، فوقع الحديث من نفسهما موقعاً غريباً ولم تع ذاكرتهما سوى كلمة واحدة ترددت كثيراً في المحاضرة هي كلمة (لافونتين) (شاعر رومانسي فرنسي كبير) فراحا يترقبان انتهاء المحاضرة على أحر من الجمر ثم انطلقا خارجين

منها بعد انتهائها وهما يتندران على حالهما ويسميان قاعة المحاضرة تلك باسم سجن (لافونتين)، لأنهما سجنا فيه بلا ذنب ساعتين كاملتين، وكانت هذه المحاضرة هي آخر عهد هذا الصديق بمحاضرات الجامعة المصرية، فانصرف عنها يائساً، أما طه حسين فكان له شأن آخر فلقد قرر في تلك اللحظة التي غادر فيها القاعة ألا يرضى بهذا السجن مرة أخرى وأن يتعلم الفرنسية حتى يفهم ما يقال بها، وبحث لنفسه عن مدرس يعلمه مبادئها الأولية ثم واصل الطريق إلى نهايته بعد ذلك حتى حصل على الدكتوراة من الجامعة المصرية، ثم أوفد إلى جامعة (السربون)، ليحصل منها على الدكتوراه أيضاً ويلتقي في العاصمة الفرنسية بقدره الذي كان ينتظره هناك وقابل الفتاة الفرنسية (سوزان) التي قدر له أن تشاركه حياته حتى اللحظة الأخيرة وأن تشهد صعود نجمه إلى السماوات العلا في عالم الأدب والفكر والسياسة.. وكانت شرارة البداية أيضاً في هذا الطريق الطويل هي خطأ الصديق في تحري قاعة المحاضرات الصحيحة ودخوله سجن لافونتين، فكان لهذا الخطأ الباهر أجمل النتائج في حياة طه حسين وتاريخ الأدب الحديث على السواء!

ولا ينتهي الحديث عن مثل هذه اللحظات القدرية والمصيرية في حديث الإنسان.

فابحث أنت أيضاً صديقي عن هذه اللحظة التي سوف يتغير عندها مجرى حياتك وترقبها في وعي ويقظة لكيلا تفلت منك ولكي تحقق بها ومنها أفضل النتائج وأكثرها خيرا وفائدة لك.. وللحياة معاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأستاذ ديكارت!

من بين ذكريات طفولتي البعيدة تقفز صورة هذا الرجل وتراءى لي في مخيلتي في بعض الأحيان! أما الرجل فقد كان حين سمعت به ورأيته لأولٍ مرة في العشرينات من عمره. وقد عرفت من أمره أنه فشل في دراسته فشلاً ذريعا وحار أهله معه، فلقد بلغ سن الشبابٍ ولم يحصل على أية شهادة ترشحه لأية وظيفة، ولم يتعلم حرفة تضمن له عملاً، وحتى لو كان قد تعلم حرفة فهيهات أن يقبل بالعمل حرفياً، وهو من يعتبر نفسه (أفندياً) رغم فشله الدراسي، ومن (ذوي الأملاك)، مع أن الأسرة كلها لم يبق لها من موارد العيش سوى قطعة أرض زراعية صغيرة لا ترى بالعين المجردة ولا تفي باحتياجاتها الأساسية، ولولا البيت القديم الصغير الذي ورثته الأسرة وتقيم به، لانكشف المستور وهتكت الأستار التي تحميها عن أنظار الآخرين، وقد ساهم تعثره الدراسي عاماً بعد آخر وتردي أحوال الأسرة الاقتصادية مع تقدم زملائه السابقين في طريقهم الدراسي حتى بلغوا المرحلة الجامعية، في تعقيد شخصيته إلى أقصى حد، فأصبح شديد الحساسية لأية مقارنة بينه وبين غيره من الناجحين، وشديد التحفز لأية كلمة أو إشارة من هؤلاء الزملاء السابقين يتشمم فيها رائحة الاعتزاز بتفوقهم الدراسي أو المعايرة له بالفشل، حتى ثقلت صحبته عليهم بعد طول صبر عليه.

ولولا تخوفهم من تفسير ابتعادهم عنه بأنه لم يعد جديراً بصحبتهم بعد أن أصبحوا طلبة جامعيين، لما اقترب منه أحد أو تحمله، ثم أخطأ أحدهم وكان قد التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة، وحياه حين رجع في إجازة الصيف مداعباً:

أهلا يا أستاذ ديكارت!

فاعتبر تشبيهه بالفيلسوف الفرنسي إهانة كبرى له.. وإيماءة إجرامية من زميله لتذكيره بأنه يدرس الفلسفة فانفعل انفعالاً جنونياً وانهال عليه سباً ولعناً وتحقيراً، رغم محاولات زميله الاعتذار وتأكيد حسن نيته له.. وتكررت مواقف مشابهة لذلك بينه وبين زملاء آخرين حتى أصبحت صحبته عبئاً نفسياً لا يطيقونه، وانصرف عنه بعضهم آسفين على ما تدهور إليه من حساسية مفرطة وعدوانية غير مفهومة تجاههم، فقابل هو ذلك باعتزال الجميع معلناً أنه لم تعد تليق به صحبة هؤلاء التلاميذ المفاعيص، وهو رجل ناضج من ذوي الأملاك، خليق ألا يصاحب إلا الرجال من كبار التجار والمحامين والأطباء وموظفي الحكومة! وتعويضاً لما يشعر به من نقص وضآلة الشأن ربى شارباً غليظاً اكتملت له به مع نظرة الغطرسة والترفع التي اكتسبها هيئة رجل خطير! وأصبح وكأن لا عمل له في الحياة سوى تأكيد أهميته وخطورة شأنه فراح يمشي في الطريق بوقار مفتعل وهو يحمل صحيفة الأمس أو صحيفة الأسبوع الماضي؛ لأنه لا يقدر على شراء الصحيفة كل يوم، ويدخل كل ماتم يصادفه ليقدم العزاء لأهله ولو لم يكن يعرفهم، وكل فرح يقام بالمدينة ليقدم التهنئة لأصحابه فيجلس بين المدعوين في كبرياء ويتحدث عن (مشاغله) العديدة والمجهود الكبير الذي يبذله في الإشراف على أرض الأسرةٍ الزراعية.. أو (العزبة، كما كان يقول عنها..

إلخ ثم ينصرف بعد قليل معتذرا (بضيق الوقت، ويخرج في جلال تشيعه الابتسامات الساخرة من وراء ظهره؛ لأن الجميع يعرفون أن (العزبة) ليست سوى فتات قطعة ميكروسكوبية من الأرض.. وأنه لا عمل له ولا دور في الحياة.

وقد استنام إلى حياة الفراغ هذه بعض الوقت، وكلما طال عهده بها ازداد تعقداً.. وتعاظماً.. وحساسية في التعامل مع الجميع، حتى خشيت عليه أمه الجنون، وراحت تلح عليه بضرورة أن يعمل أي عمل، لينشغل به، ويسهم في تحسين أحوال الأسرة المتردية، وكلما استعانت عليه بأحد في هذا الشأن رد عليه في تكبر: وأين هو العمل الذي يليق برجل مثلي؟ هل أعمل عاملاً في محل أو في ورشة؟

وأخيراً جاء الحل الموفق السعيد وهو أن يعمل تاجراً في تجارته الخاصة فلا يكون لأحد سلطان عليه سواه، فإذا كانت الظروف لا تسمح باستئجار محل ملائم في شارع رئيسي.. إذن فليهدم حائط الغرفة الأمامية بالدور الأرضي من بيت الأسرة لتصبح محلاً مناسباً له.. وأما السلع وتكاليف إعداد المحل، فلسوف تتكفل بها الأم بعد بيع آخر قطعة من حليها الذهبية.. فلا يبقى بعد ذلك سوى أن يوظف هو عبقريته في هذه التجارة ويصنع نجاحه بنفسه، ويشعر بأهميته وجدارته..

وتم ذلك بالفعل، وخلال وقت قصير كان قد تم إعداد المحل وشراء السلع البسيطة التي تكون رأس مال تجارته، ولم تكن قيمتها تزيد وقتها على ستين أو سبعين جنيهاً على الأكثر ولا تتعدى بعض علب البسكويت الشعبي والحلوى الرخيصة والسجائر وبعض الخردوات، ورغم ذلك فلقد حرص على أن يميز محل تجارته بشيئين يتناسبان، مع وضعه المميز في الحياة ومستواه (الثقافي) المختلف عن مستوى أمثاله من أصحاب الحوانيت الصغيرة. أما الشيء الأول فهو مكتب أثري ضخم مطعم بالصدف ويصلح رغم رثاثته لأن يكون مكتباً لرئيس محكمة النقض لعله كان مملوكاً لجده الأزهري، وقد وضعه في صدر المحل فبدا غريباً وسط هذه البضائع التافهة. ووضع عليه لوحة تحمل هذه العبارة الشهيرة: اتق شر من أحسنت إليه!

وأما الشيء الثاني فهو صندوق بريد خاص في حجم صناديق البريد العمومية، ولا أعرف كيف حصل عليه أو كيف صنعه، وقد علقه على الحائط إلى جوار باب المحل وكتب عليه بفرشاة البوية عبارة عجيبة هي: شكاوى الجمهور! كأن الرجل حاكم ديمقراطي يحكم هذه المدينة الصغيرة ويحل مشاكل جماهيرها ويسمع لآرائهم! وهيهات أن يجرؤ أحد على سؤاله عن معنى هذا الصندوق أو ضرورته، ولو تجرأ أحد وفعل ذلك لأجابه برزانة تليق برجل خطير مثله، وكما شرح هو بعد ذلك، بأنه ما دام قد اختار العمل بالتجارة، فلسوف يتعامل مع (الجمهور)، كل يوم، وسيكون لهذا الجمهور بعض الشكاوى بالضرورة من سوء الخدمة أو من نوعية بعض السلع أو من طريقة التعامل إلخ.. واحتراماً منه لآراء الجمهور وملاحظاته فقد خصص هذا الصندوق لتلقي هذه الآراء والملاحظات ودراستها بعناية والرد عليها بما يحقق مطالب الجمهور

ويرضي الجميع! ولا غرابة في ذلك لأن هذا هو الفارق بينه وبين التاجر الجاهل الأمي الذي لم يعمر في المدارس مثله 15 عاماً أو يزيد!

ولأن البلاغة هي ملاءمة الحال لما يقال، فلقد بدا صندوق شكاوى الجمهور هذا في حينه قمة في التعبير (البليغ) عن جنون العظمة والانفصال عن الواقع، اللذين تملّكا هذا الشاب البائس بالرغم من سلامة المبدأ نفسه كمبدأ هام من مبادئ علم التسويق والتجارة إذ إن من سيتعاملون معه لن يعدوا أن يكونوا من الأطفال الذين يشترون منه بالقرش ونصف القرش، أو من السيدات الأميّات اللاتي سيشترين منه بكرة خيط بقرشين؟ فماذا يدعو هؤلاء - حتى لو استطاعوا - لأن يسطروا ملاحظاتهم وشكاواهم له على الورق ويلقوا بها في الصندوق، وصاحب المحل يجلس أمامهم لا يجد ما يفعله معظم النهار، ويستطيعون مواجهته شفوياً بما يريدون من ملاحظات!

لقد كان هذا الصندوق العجيب هو قمة الانفصال حقاً عن الواقع، والإحساس بمركب النقص ومحاولة تعويضه بادعاء الأهمية، والمسؤولية أمام (جماهير) البونبون والعسلية الغفيرة!

وبالطبع فلقد ظل الصندوق خاوياً من يوم تركيبه إلى مصالا نهاية كما ظل المحل نفسه ولا عجب في ذلك وعقلية صاحبه هكذا - كاسدا لا يكاد يربح شيئاً.. ولا تحمل رفوفه من السلع إلا أقل القليل.. كما ظل (الأستاذ ديكارت)، قابعاً وراء المكتب الفخم معظم ساعات اليوم بلا عمل يشغله سوى قراءة الصحيفة القديمة، أو التظاهر بمراجعة حسابات المحل باهتمام شديد في دفتر أسود كبير لا يتناسب مع وضع المحل البائس كلما مربه أحد من معارفه أو زملائه القدامى. وراح العمر يتقدم به - وحاله يتدهور من سيء إلى أسوأ وقد ازداد مع الأيام تعقيداً وتكبراً حتى أصبح ينظر للجميع في ازدراء وتعال غير مفهوم.. ولا يتناسب أبداً مع منظره المثير للرثاء وهو وسط المحل الخالي وخيوط العنكبوت تتدلى حوله من السقف والرفوف كصورة مجسمة للخيبة والعجز عن فهم حقائق الواقع والتواؤم معها.. وكصورة مثيرة للتأمل أيضا لجنون العظمة الذي ينطوي دائماً في نفس الوقت على نقيضه وهو جنون الشعور بالاضطهاد لأنه ببساطة لو لم تكن (عظيماً)، لما اضطهدك الآخرون كما يتوهم دائماً المصابون بهذا الداء.

أما الصندوق فلقد رأيته في مكانه بجوار باب المحل آخر مرة منذ ثلاثين عاماً وفتحته مسدودة بالتراب والطين الذي تخلف عن المطر عاماً بعد عام.

وأما الرجل نفسه فلا أدري ماذا صنعت به الأيام بعد ذلك وهل واصل الاستسلام لجنون العظمة والكبر حتى النهاية أم علمته الأيام ما لم يكن يعلم، فعرف أن الكبر قرين الكفر لأنه اجتراء على مقام الله سبحانه وتعالى.. (المتكبر)، الوحيد الذي يحق له حقاً وصدقاً أن يتكبر، ورغم ذلك فهو.. جل في علاه.. الرؤوف الرحيم بخلقه. أما باقي البشر ومهما بلغ بهم شأنهم، فهم أفراد ضعاف تهزمهم بعوضة حقيرة.. وفيروس تافه لا يرى تحت الميكروسكوب المكبر ويبكون كالأطفال أمام الألم، ولا يملك أحدهم لنفسه شيئاً، فإن كان لبعضهم ما

يعتزون به من مزايا (فمن مدحك فإنما قد مدح مواهب الله عندك، فالشكر لمن منحك وليس لمن مدحك)، كما قال صادقاً ابن عطاء الله السكندري (في الحكم العطائية).

وأما لماذا أتذكر هذا الرجل وتقفز صورته إلى مخيلتي، في بعض الأحيان؛ فلأنه صاحب فضل شخصي عليّ من حيث لا يدري، لأنني قد رأيت فيه نموذجاً مجسم لما يفعله التكبر والغرور والانفصال عن الواقع بالإنسان، وكيف يحيله إلى سخرية للآخرين في نفس الوقت الذي يتوهم فيه أنه موضع احترامهم.. كما أتذكره أيضاً لأنني قد أرى في الحياة نماذج مكررة له تتعامل مع الدنيا بنفس منطقه.. وأوهامه.. وغروره. فاسترجع على الفور صورة الأستاذ ديكارت، ومشهد صندوق بريده الذي ظل ينتظر شكاوى الجمهور بلا طائل سنوات طوال، وابتسم للذكرى.. وأردد وراء شاعر الإنجليزية الأعظم شكسبير كلمته الحكيمة: إن الغرور هو نعمة الله لأصحاب النفوس الضعيفة! وأقول لنفسي إن هذا صحيح تماماً لأنه يعوضهم عن ضعف نفوسهم.. وفقر معنوياتهم وفضائلهم. فيمضون في الحياة وهم يتوهمون أنهم (كائنات جليلة الشأن)، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلاً، وهم في الحقيقة أشخاص تافهون.. وبؤساء معنوياً ونفسياً وحالهم يصعب على كل صاحب قلب حكيم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تنس وضع الغطاء!

شكا لي صديق من بعض تصرفات ابنه الشاب التي تثير سخطه عليه وأعيته الحيل معه لكي يقلع عنها! وأصغيت باهتمام شديد لما ينكره صديقي على ابنه من سلوكيات وعادات خاطئة، فروى لي عنه أنه شاب (مستهتر) و (غير منظم).. و (غريب الأطوار)، مما يثير قلقه ومخاوفه بشأن مستقبله ونجاحه في الحياة، أما علامات استهتاره وغرابة أطواره كما حكاها لي الأب الصديق فهي أنه لا يلتزم أبداً (باللائحة الداخلية) غير المكتوبة لنظام الحياة داخل البيت في حين يلتزم بها الأبوان وشقيقته الصغرى وشقيقه الطفل، وعلى حين يرجع الجميع من أعمالهم أو مدارسهم فيخلعون أحذيتهم بجوار باب الشقة ويضعونها في الدولاب المخصص لذلك، فإن فتانا الشاب يخلع حذاءه في أي مكان، ويلقي بجوربه عليه، وقد بح صوت أبيه وأمه من رجائه كل يوم أن يضع حذاءه في دولاب الأحذية!، وعلى عكس ما تفعل أخته أو أخوه، فإنه يخلع ملابسه ويلقيها أيضاً في أي مكان حيثما اتفق مع أن الشماعة إلى جواره ويستطيع بغير عناء أن يعلق ملابسه عليها ليحافظ على النظام في بيته، أما في الصباح وحين ينهض من نومه فإنه يغسل أسنانه بالفرشاة، ولا يمكن أبداً مهما كررت عليه أمه وأبوه الرجاء أن يعيد غطاء أنبوبة معجون الأسنان إلى مكانه أبدً مع أنه يعرف أن تركها مفتوحة يؤدي إلى جفاف المعجون وتلفه! كما أنه يرجع من كليته متلهفاً على تناول طعام الغداء، وبدلاً من أن يشارك الأسرة غداءها حول المائدة كما يفعل الأبناء (الصالحون)، فإنه يملأ طبقه مما يحتاج إليه من طعام، ثم يجلس على الأرض ويتناوله بتلذذ شديد عازفاً عن الجلوس إلى المائدة مع باقي أفراد الأسرة ومبرراً ذلك بأنه يستريح هكذا.. ويفعل نفس الشيء أيضا حين يستذكر دروسه، فلا يجلس إلى المكتب المخصص له وإنما يذاكر دروسه في أي مكان من الشقة جالساً على الأرض أو فوق السرير، أو مضطجعاً على (الفوتيل)، وكلما طالبته أمه بالجلوس إلى المكتب لأن هذا أفضل من الناحية الصحية أجابها بأنه (سعيد هكذا).

ومع أنه متوسط القامة أو يميل إلى القصر، إلا أنه يرفض نصيحة أبويه بتجنب ارتداء الملابس الواسعة المتهدلة عليه حتى لا يبدو فيها مثل (فطوطة) الذي يرتدي ملابس أخيه الأكبر، ويفضل دائماً الملابس المتهدلة؛ لأنها مريحة ولأنه أيضاً (يستريح هكذا)، ولا يرى بأساً في أن تبدو ملابسه واسعة بغض النظر عن اتفاقها مع موضة الملابس الشبابية أو تعارضها معها، كما أنه يكره ارتداء البدلة الكاملة مع أن لديه بدلتين اشتراهما أبوه له لحضور المناسبات العائلية وأفراح الأسرة، **ويكره ارتداء ربطة العنق، كراهية التحريم وفشلت معه محاولات أبويه لإقناعه بارتدائها في مناسبة مهمة كفرح أحد من الأهل كما أنه متقلّب الهوى والمزاج أيضاً.. ففي كل سنة له هواية جديدة تستغرقه وينشغل بها حتى يظن الأهل أنها قد أصبحت هوايته الأساسية، فإذا به يزهدها في الصيف التالي وينبهر بهواية جديدة و نشاط آخر، وبعض هواياته غريبة وغير مألوفة، فأحياناً**

يجمع أغطية زجاجات المياه الغازية، وأحيانا يجمع علب السجائر الفارغة مع أنه لا يدخن أبداً والحمد لله.. وأحيانا يجمع أغلفة قطع الشيكولاته والبسكويت ويصنع منها أشكالاً مختلفة وهكذا.

وسألني الأب الصديق وسحب القلق تتجمع داخله: تُرى هل تنصحي بعرضه على طبيب نفسي ليساعدنا في توجيهه إلى ما فيه خيره وصلاح أمره فابتسمت وأنا أستعيد في مخيتلي صورة هذا الابن الشاب الذي التقيت به أكثر من مرة وترك في نفسي انطباعاً طيباً من اللحظة الأولى ثم سألت الأب المهموم:

هل تنكر على ابنك هذا شيئاً في دينه وخلقه أو التزامه بدراسته ورؤيته للحياة؟

وفوجئ الأب بسؤالي للحظات، وبدا لي كما لو كان يراجع في مخيلته (حساب) ابنه مع الحياة قبل أن يجيبني، ثم قال لي متردداً، إنه لا ينكر عليه شيئاً من ذلك في الحقيقة، فالحق أنه على الناحية الأخرى من كل هذه (الأطوار الغريبة)، شاب متدين تديناً صحيحاً باعتدال وسماحة ويؤدي صلواته ويصوم شهره، وينفر من الحرام بكل أشكاله وأولها الكذب والخداع وإيذاء الغير، كما أنه دمث الطبع ورضي النفس ويتعامل مع الآخرين بحب واحترام، وينطوي على قلب عطوف تجاه أخويه الأصغر منه وأبيه وأمه وأهله والضعفاء من الناس بصفة عامة، كما أنه يحترم من هو أكبر منه سناً ولا يناديه باسمه إلا مسبوقا بكلمة (يا عم فلان)، ولو كان أقل الناس شأناً فهو لا يعرف الكبر والاستعلاء على من هم أدنى منه درجة اجتماعياً، ولا يشعر - في الوقت نفسه - بالنقص تجاه من هم أكثر منه ثراء ومكانة اجتماعية ولا يعرف الحقد عليهم أو على أحد، وإنما على العكس من ذلك يرى في أبيه أعظم الرجال مهما كانت قدراته المادية، وفى أمه أفضل النساء مهما كان وضعها الاجتماعي، وينجذب تلقائياً وبخيط سحري خفي إلى أهل أبيه وأمه ويحبهم من قلبه، كما أن رؤيته للحياة في إجمالها سليمة فهو لا يرى غاية الدنيا الأولى في الثراء الفاحش والملابس الغالية والسيارة الفخمة، وإنما يراها في السعادة والحياة بين من يحبهم ويحبونه مهما كانت الأوضاع المادية والاجتماعية لهم، كما أنه أيضاً (كريم)، بما في يده، و(شهم) ولا يتأخر عن أداء واجب مجاملة لأحد من الأهل أو الأصدقاء ولا عن زيارة مريض أو الوقوف مع صديق له في محنة طارئة، وحين يكون (ميسوراً) في أول الشهر فإنه لا يبخل على أخويه بإعانة صغيرة أو سلفة لا ترد.. أو هدية بسيطة، وحين ينفد مصروفه قبل نهاية الشهر فإنه لا يطلب المزيد ولا يتذمر أو يتسخط.. وإنما يحبس نفسه في البيت فقط ويستغني عن نزهته الخارجية إلى أن (يقبض) مصروفه ويرجع لممارسة نظام حياته المعتاد!

ونظرت إلى محدّثي الذي نسي هواجسه ومخاوفه السابقة في غمار حديثه عن سمات ابنه الطيب المستقيم، واتسعت ابتسامتي أكثر وأكثر وأنا أقول له لائماً: وماذا تريد في ابنك الشاب هذا من فضائل جليلة، ومثل عليا عائلية وإنسانية وأخلاقية أكثر من هذا؟ وماذا تطلب منه لكي يحقق لك الصورة المثلى لشاب في مثل سنه وظروفه وعصره؟ إنه شاب طيب القلب، رضي الخلق، مستقيم الطبع سليم الوجدان يحيا في طاعة الله وضميره الأخلاقي والديني حي ومتيقظ،

وإحساسه العائلي قوي وحار ورؤيته للحياة صحيحة وسليمة وحكيمة؟ أما بعض العادات الشخصية.. والسمات التي تنكرها عليه، فحتى لو كانت غير صحية أو مخالفة للائحة الحياة داخل الأسرة، فإنها في النهاية هنات هامشية ولا تمس الجوهر الأصيل فيه، ولا ينبغي لها أبداً أن تنقص من جدارته بفخرك واعتزازك به، فالكمال لله وحده يا سيدي، وليس في الحياة كلها إنسان (كامل الأوصاف) تماماً إلا في شعر الشعراء وغزل المحبين، ولابد دائماً من القبول ببعض الاختلاف في طبائع الشباب وعاداتهم الشخصية لأنهم مختلفون أصلاً عنا ولا يمكن لهم أن يكرروا صورتنا بكل تفاصيلها في الحياة، ولا هو من العدل أن نطلب منهم ذلك، وبالتالي فلابد أن تختلف بعض عاداتهم وسماتهم وطباعهم، عن طباعنا وعاداتنا الشخصية، وفي هذا الاختلاف نفسه سر تجدد الحياة وتدفق المياه الجديدة في نهرها، وعنصر أصيل من عناصر تفردهم وتميز شخصياتهم عن شخصياتنا، فالبشر ليسوا كقوالب الطوب المتماثلة في كل شيء. ولابد دائماً من أن تختلف بعض عادات الكبار وطبائعهم عن بعض عادات الشباب وطبائعهم وأسلوبهم في الحياة، ومادام هذا الاختلاف فيما لا يمس جوهر الالتزام الديني والخلقي والإحساس بالواجب فلا ضير فيه ولا ملام، إذ ماذا يجدي الإنسان لو كان ابنه الشاب منحرفاً أو مستهتراً في قيمه الدينية والأخلاقية أو فاشلاً مثلاً في دراسته، وكان على الناحية الأخرى ملتزماً تمام الالتزام بنظام الحياة داخل الأسرة، فيخلع ملابسه ويعلقها على الشماعة، ويضع حذاءه في المكان المخصص له، ويغلق أنبوبة معجون الأسنان بعد استعمالها؟

وماذا يعوض الإنسان عن مثل هذا النقص الأخلاقي لو كانت كل عاداته بعد ذلك متوافقة مع النظام في البيت ومريحة للأهل والأسرة؟

أما هذه العادات التي تراها (غريبة الأطوار)، فإن تمسك بعض الشباب بها رغم انتقاد الأهل الدائم لها قد يعبر في أحد وجوهه عن رد فعل عكسي لخطأ بعض الآباء والأمهات في انتقاد كل ما يصدر عنهم من سلوكيات وتصرفات ولو كانت هينّة وبسيطة كهذه التصرفات، إلى جانب أن هناك تأثيراً لاشك فيه لنزعة جبر التكرار التي قد تسيطر على العقل البشري أحياناً وتدفع الإنسان لتكرار بعض ما ينكره عليه الآخرون أو بعض ما لا يرضي هو نفسه عنه ويود لو يتخلّص منه، لكن الانتقاد الدائم لا يعينه على ذلك، وإنما يدفعه من حيث لا يدري إلى تكراره.. أو نسيان تعليمات الأهل بشأنه كنوع من احتجاج العقل الباطن على جعله هدفاً دائماً للانتقاد من جانب الأهل بحق وبغير حق.

إن بعض الشباب في الخارج يعبرون عن نزعة الاحتجاج هذه بتعمد الإغراب في مظهرهم وأشكالهم ووجوههم، فيحلقون رؤوسهم بالموسى أو يهملون قصها نهائياً حتى تصبح كشعر البنات.. أو يرسمون على وجوههم دوائر وأشكالاً سيريالية عجيبة، أو يطلون وجوههم بلون أبيض كلون الدقيق، أو يتخذون شكلاً شيطانياً في حواجبهم وقرون الشعر المدببة في رؤوسهم، لكن هذا بلاء آخر لا وجه بمقارنته بمظاهر الاحتجاج النفسي البسيطة المألوفة عندنا كنسيان تعليمات الأهل بشأن خلع الحذاء في المكان المخصص لذلك، ومن ناحية

أخرى فإن لكل إنسان عاداته وطباعه.. وتفرده الخاص الذي ينبغي لنا أن نعترف له بحقه فيه ونتسامح معه في ذلك مادام لا يؤثر على التزامه الخلقي والديني، أما (النقائض)، و (العيوب) والهوايات الغريبة المختلفة التي يتنقل بينها ابنك الشاب من سنة إلى أخرى، فلا شيء في كل ذلك، ولا هو مؤشر لأي انحراف نفسي أو خطر محتمل يمكن أن يؤثر على نجاح الشاب وتحقيقه لأهدافه وطموحه في الحياة وما أكثر الأمثلة على أشباه تلك (العيوب) و (النقائص)، التي أنكرها بعض الآباء والأمهات على أبنائهم وتخوفوا من تأثيرها عليهم في المستقبل، فإذا بهؤلاء الأبناء أنفسهم يحققون في الحياة من النجاح والتألق ما لم يحققه هؤلاء الآباء أنفسهم، فالرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن مثلا (1809- 1868) كان لا يرتدي إلا الملابس الواسعة المتهدلة كابنك تماماً وكان رث الهيئة وبشع الشكل والمنظر وقد عجزت زوجته عن أن تخلصه من مظهر المحامي الريفي الذي يبدو به، ومع ذلك فلقد فاز برئاسة الولايات المتحدة ودخل التاريخ من أوسع أبوابه وارتبط اسمه بمشروعه العظيم لتحرير العبيد في أمريكا.

وعبد الناصر نفسه كان لا يهتم كثيراً بمظهره وكانت بدلته من طراز تقليدي لا يساير الموضة السائدة في زمنه، وبنطلونه واسعاً فضفاضاً حتى ليتهدل وينزل عن وسطه كل حين فيرفعه مرة أخرى، ولم يكن الناس يتعاملون مع ملابسه، وإنما مع شخصيته، وكانت هيبته تسكن القلوب.

والرئيس الراحل أنور السادات كان قصيراً كابنك أيضاً على عكس ما يعرف الكثيرون عنه وعلى عكس ما كانت توحي به صورته في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، ولم يحل قصره بينه وبين أن يقوم بما قام به من أدوار في تاريخ بلاده وتاريخ المنطقة كلها، ونابليون بونابرت كان قصيراً كذلك قصراً ملفتاً للنظر فعوض قصره، بالتفوق العسكري وأصبح قائداً لأحد جيوش فرنسا وهو في العشرينات من عمره.

والكاتب الألماني توماس مان (1875- 1955) كان لديه مكتب فخم للكتابة كالمكتب الذي تخصصه لمذاكرة ابنك ويهجره، ومع ذلك فلم يكن توماس مان يكتب عليه أبداً وإنما كان يكتب على مائدة السفرة، أو وهو مسترخ على شيزلونج طويل، وفشلت معه أيضاً كل جهود الأهل لأن يجلس إلى مكتبه في وضع صحي ويكتب ما يريد من مؤلفات ومقالات!

ونجيب محفوظ لا يحب كابنك ارتداء ربطات العنق بل يكرهها ويذهب إلى أي مكان وأية مناسبة بالبدلة والقميص بدون كرافت، وقد شهد حفل تكريم الدولة له بمناسبة فوزه بجائزة نوبل عام 1988 وألقى كلمته أمام الرئيس مبارك وهو بالبدلة وتحتها بلوفر صوفي بلا كرافت.

أما هوايات ابنك التي تراها غريبة ويتقلب بينها من عام إلى آخر فلو حكيت لك عن هوايات العظماء الغريبة وبعض عاداتهم غير المألوفة لاحتجت إلى صفحات طوال لأعدد لك بعضها لكن يكفي أن أقول لك فقط إن تجدد الهوايات وتعددها بل وغرابتها أيضاً لا شيء فيه ولا خطر، فرئيس الوزراء البريطاني العتيد الذي قاد

بلاده للنصر على الألمان في الحرب العالمية الثانية، ونستون تشرشل لم يكن يحلو له وقت وسط أعبائه الجسام إلا وهو يمارس هواية البناء بالطوب والأسمنت و (المسطرين) في ضيعته ببلدة تشارتويل، وقد بنى سور بيته الريفي فيها بنفسه، كما كان يمارس الرسم أيضا ويجمع (قصافات) السيجار من كل الأنواع.. ويقضي بعض الوقت في تنظيفها وتأملها!

والعالم الألماني العبقري أينشتاين كان يهوى العزف على الكمان، ويحب مشاركة العازفين المحترفين عزفهم في الحفلات الخاصة رغم تذمرهم من مشاركته لهم في ذلك لعجزه عن ملاحقة أدائهم المحترف للعزف الموسيقى! والجنرال دوايت ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الخمسينات، كان يحتفظ في محفظة نقوده، بسبع قطع من العملة البرونزية التي لا تزيد قيمها عن ملاليم ويعدها من حين لآخر ويلهو بها ثم يعيدها لمحفظته ويتفاءل بها وقد رافقته معظم مراحل حياته!

ومعظم هؤلاء.. بل ومعظم الناجحين في حياتهم.. لم تخل حياتهم من انتقاد ذويهم لبعض تصرفاتهم وعاداتهم وسلوكياتهم.

ومع ذلك فقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، فلماذا تريد لابنك أن يكون مثالاً نادراً للانضباط العسكري في كل شيء.. مع أنه والحمد لله شاب ملتزم دينياً وخلقياً ومتفوق في دراسته وطيب القلب ومحب للناس وللحياة؟.. وتوقفت عن الحديث برهة لأدقق في اختيار كلماتي حتى لا أجرح مشاعر صاحبي ثم قلت له:

إنني أقدر مشاعرك الأبوية ورغبتك الطبيعية في أن يكون ابنك أفضل الأبناء وأجدرهم بالسعادة والنجاح في الحياة، لكنني أخشى أن تكون قد انجرفت كما ينجرف كثيرون إلى (الفخ) الذي عبر عنه المفكر الفرنسي فولتير حين قال على لسان (كانديد)، في الرواية التي تحمل نفس الاسم: ثمة متعة في انتقاد كل شيء.. وفي كشف الأخطاء فيما يراه الآخرون جميلاً! فالحق أننا كثيرا ما نقع في هذا الفخ إذا لم نحترس له فنتورط في انتقاد كل شيء في أعزائنا والمقربين منا وفي الآخرين جميعا ونسعد بكشف الأخطاء فيما يراه غيرنا جميلاً ولا ضير فيه، فتكون النتيجة هي أن نتصادم مع من نتمنى لهم (الكمال)، ولا كمال إلا له للخالق العظيم وحده وتحدث فجوة نفسية ومعنوية بيننا، وبين من نحبهم ونريد لهم أفضل الأشياء في الحياة، فإذا بنا بدلاً من أن نحقق ذلك نرهقهم بالانتقاد بالحق والباطل.. وتكلفهم من أمرهم رهقاً وتطالبهم بأن يكونوا ملائكة من ذوات الأجنحة لا بشراً كالبشر!

وأطرق صديقي برأسه مفكراً ومتأملاً للحظات ثم رفع رأسه إليّ وقد انبسطت ملامحه واختفت منها آثار القلق السابق وقال لي متسائلاً: إذن بماذا تنصحني أن أفعل؟

فأجبته بأنني أنصحه بأن يشكر ربه كثيراً.. آناء الليل وأطراف النهار وفي الأسحار على ما أنعم به عليه من نعمة يفسد على نفسه التمتع بها بتركيز انتباهه على التوافه من الأمور حتى لو كانت صائبة، وبأن يجعل من عادات ابنه التي

يستنكرها هذه.. نادرة من نوادر الأسرة الخاصة التي تتندر بها وتضحك لها مع الابن، لا أن تتسخط عليها وتجعل منها سبباً للملاحاة والنزاع والشجار معه، وبذلك فقط قد يتخلص الابن تدريجياً منها أو من بعضها مع تعمق خبرته بالحياة، ومع اقتناعه الذاتي وليس الخارجي، بأن حياته سوف تصبح أفضل وأكثر يسراً لو ازداد إيماناً بأهمية النظام لتحقيق النجاح. ومددت يدي لصديقي وهو يغادرني راضياً، فتذكرت فجأة ذلك البيت القديم من الشعر المدرسي الذي كان مدرس اللغة العربية يكرره علينا وقتها كثيرا:

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلَّهن.. نجابة الأبناء

و (النجابة) لغويا هي (النباهة وظهور فضل الولد على أترابه) لكننا للأسف لم نكن ولا كانت أعمارنا تسمح لنا وقتها بأن نفهم هذا البيت حق فهمه، ولا أن نقدر هذه النعمة الجليلة حق قدرها، ثم علمتنا الأيام وتجربة الحياة ما لم نكن نعلم، وعرفنا كم كان هذا البيت الذي كنا نتندر به أحياناً صادقاً وجميلاً ومعبراً عن أعظم المعاني والنعم الحقيقية.

وإذا كنت أرجو الآباء والأمهات دائماً أن يقبلوا ببعض السمات والعادات الهيئة التي يتصورونها غريبة في طبائع أبنائهم، فلا بأس بأن أرجوك أنت أيضا يا صديقي ألا تنسى إعادة غطاء أنبوبة معجون الأسنان إلى موضعه لكي تكتمل سعادة الآباء والأمهات (بنجابة) أبنائهم ويستريح الجميع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنه شخص آخر

دعيت إلى هذه الجلسة الطارئة على وجه السرعة، وأكد عليّ الداعي ضرورة الحضور، وإلا فلن يكتمل نصاب الجلسة! أكدت له صدق نيتي في الحضور، والمشاركة في أعمالها وتوجهت إليها بالفعل في الموعد المحدد.

كان مقر الاجتماع بيت أحد الأصدقاء.. وكان جدول الأعمال يقتصر على موضوع واحد، هو الفصل في خلاف مؤسف بين صديقين حميمين والانتصاف لأحدهما من الآخر! أما المحلفون الذين سيسمعون دفاع كل منهما عن نفسه وادعاءاته على الآخر. فقد كانوا ثلاثة من الأصدقاء المشتركين تراضى الطرفان على الاحتكام إليهم، وقبلوا مقدماً، بما سوف يحكمون به.

وفي الموعد المحدد جاء المتقاضيان أحدهما وراء الآخر، ونهضنا للترحيب بكل منهما.. وتصافح الخصمان بأدب، ولكن بمشاعر حيادية، ثم جلس كل منهما في ناحية، تبادلنا الحديث لبعض الوقت. قبل أن تبدأ الجلسة، فلاحظت أن كلا الصديقين يتجنب النظر ناحية الآخر، وأنه يبدو في جلسته كطفل غاضب ينتظر من ينصفه ويسترضيه. وتذكرت وكلاهما يجلسان في مواجهتنا أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار، ما حدث حين جاء يهودي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليشكو له علياً بن أبي طالب في دين أو نزاع بينهما، وكان إمام المتقين علي يجلس إلى جوار عمر، فحرص العادل عمر على أن يساوي بينه وبين خصمه في مجلس القضاء، فطلب منه أن ينهض من جواره، ويقف إلى جوار خصمه، لكي يتحدث كل منهما بما عنده قائلاً له: ساو خصمك يا أبا الحسن، فظهر الغضب على وجه علي، ونهض فوقف إلى جوار اليهودي، وعرض الرجل ادعاءه.. وعرض علي دفاعه، فقضى عمر بينهما بما رآه عدلاً. وبعد انصراف المدعي راضياً، سأل عمر علياً: أكرهت أن تساوي خصمك يا علي؟ فأجابه إمام المتقين عاتبا: بل كرهت أن تميزني عنه فتناديني أمامه بكنيتي (يا أبا الحسن)!

فتساءلت صامتاً، وأنا استرجع هذه القصة.. وأين لنا بعدل عمر.. وتقوى علي؟

بعد قليل تحدث صاحب البيت عن عمق الصداقة التي تجمع بين هذين الصديقين المتقاضيين، وواجبنا في إنقاذها من الانهيار بفعل أسباب عارضة، فتعجبت لما آل إليه الحال بينهما في الشهور الأخيرة، وقد كان كل منهما نعم الصديق المخلص لصديقه معظم سنوات العمر.. حتى لينطبق عليه قول أبي العتاهية:

صديقي من يقاسمني همومي

ويرمي بالعداوة من رماني

ويحفظني إذا ما غبت عنه

وأرجوه لنائبة الزمان!

فقد جمعت بينهما الصداقة، منذ مرحلة الدراسة الجامعية، وتشابكت خيوط حياتهما وذكرياتهما معاً بعد ذلك في كل مراحل العمر، وتساندا في كل مواقف الحياة واختباراتها.. وكان كل منهما شديد الإعجاب بفضائل الآخر ومواهبه وقدراته، ويتحدث عنه في غيبته بأفضل مما يتحدث عنه في مواجهته (ويرمي بالعداوة)، من يرمي بها صديقه، حتى لا تكاد تفرق بين خصوم هذا وذاك إن كان لهما خصوم، وهما في الحقيقة شخصان فاضلان ومسالمان، ويتهم كل منهما الآخر دائماً بالسذاجة (والخيبة)، ويؤكد للجميع أنه لولاه لكان صديقه قد غرق في أكثر من ورطة شديدة، وهذا صحيح في إجماله، فقد كان كل منهما يكمل نقص الآخر، ويجبر كسره، وعلى عمق الصداقة وشدة الحب المتبادل بينهما، فلقد كنت أشعر بأن كليهما يتهيب الآخر، ويعمل له ألف حساب، ويحرص إذا أوقعته سذاجته في عثرة من عثراته، ألا يعلم بها صديقه الآخر لكيلا يسلقه بلسانه الحاد ناعياً عليه خيبته قبل أن ينهض لإقالة صديقه من هذه العثرة، ولم أكن أعجب لأمرهما في ذلك فالصديق الحق إنما يتهيب بالفعل صديقه إلى حد يكاد يقترب به من إحساس الخوف الإيجابي منه، وأقصد بالخوف الإيجابي هنا ذلك الإحساس الإنساني النبيل الذي يدفعك للحرص على عدم إغضاب من تحب.. وإلى الخوف من أن تفقده فتحرص على أن تروي شجرة صداقتك له بماء الحب والاهتمام والرعاية، وأذكر في هذا المجال أن أحدهما وسوف أرمز له باسم مجدي قد أقرض زميلاً له في العمل مبلغاً كبيراً، على وعد منه بالسداد في موعد محدد لكي يسدد مجدي قسط شقة اشتراها لابنه في تاريخ معين، وحل موعد سداد الدين، فراوغ المدين دائنه وفشلت معه كل محاولاته.. ووجد مجدي نفسه في موقف حرج، وقد تأخر عن موعد سداد القسط فسألني عن محام أمين يساعده في اقتضاء دينه، وتعجبت للطلب وأنا أعرف أن شقيق زوجة صديقه المخلص الذي أرمز له باسم صالح، محام أمين وسألته لماذا لم يستعن به، فإذا به يجيبني، وهو يتلفت حوله كأن أحدا يتلصص علينا، بأنه يخفي هذا الأمر عن صديقه؛ لأنه كان قد حذره من إقراض هذا الزميل المراوغ، فلم يستمع لنصيحته! وضحكت مما بدا عليه من جزع لاحتمال أن يعرف صالح بالأمر ويسلخه بلسانه اللاذع لوماً وتقريعاً وسخرية، من سذاجته وخيبته.. وحماقته!

وعرَّفته بمحام أمين بالفعل، ومع ذلك فلقد، علم صالح بالأمر، ولم يضيع وقته في لوم صديقه هذه المرة، وإنما توجه إلى البنك وسدد عن صديقه قسط الشقة قبل أن تتضاعف عليه الفوائد، ثم ذهب إلى ذلك الزميل المراوغ وهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يسدد دينه خلال 48 ساعة، فإذا بهذا الزميل يسدد دينه بالفعل؛ لأن تدخل صالح في الأمر قد أخافه ودفعه للكف عن المماطلة! وبعد ذلك نال مجدي من صديقه ما يكفيه من كلمات اللوم والتوبيخ! وكان منظره وهو يجلس بين يديه كالتلميذ المذنب يتلعثم ويدافع عن نفسه بأعذار واهية، يثير الشفقة والاحترام في نفس الوقت لهذه العلاقة الإنسانية النبيلة التي تجمعهما، وعلى هذا النحو مضت حياة الصديقين، وقد جمع بينهما تناسب المزاج النفسي وتشابه الرؤية للحياة، حتى أني كثيرا ما تذكرت وأنا أرقبهما كلمة أرسطو الشهيرة صديقك هو أنت غير أنه شخص آخر!

فماذا جدّ عليهما حتى تغاضب الصديقان وتباعدا وسعى بينهما الأصدقاء المشتركون لعقد هذه الجلسة.. والفصل في نزاعهما!

أما القصة فلقد رواها كل منهما من وجهة نظره.. قبل ذلك، لكننا قررنا أن نعمل في هذه الجلسة بمبدأ، ألا يحكم القاضي بعلمه.. وإنما بما يعرض عليه من وقائع وبراهين، فدعوناهما للحديث أمامنا.. ودعا كل منهما الآخر في أدب لأن يتحدث قبله!

وتبادلنا نحن النظرات الباسمة متفائلين بهذه البداية المشجعة. ثم حللنا الإشكال بدعوة مجدي للكلام؛ لأنه البادئ بالشكوى من صديقه، فتردد قليلاً، ثم روى لنا بصوت خافت كيف أن صديقه قد انشغل عنه خلال العامين الأخيرين، ومنذ أن تولى منصبه الكبير، فلم يعد نفس الصديق الذي كان، وإنما تغيرت روحه فأصبح رجلاً خطيراً مشغولاً بعمله عن الجميع، ولا يهتم بأمر أحد ويتوقع من الآخرين في نفس الوقت أن يهتموا بأمره ويجاملوه في مناسباته المختلفة بغير أن يرد عليهم مجاملاتهم أو يهتم بأمرهم على خلاف طبيعته المجاملة السابقة وإخلاصه القديم، ولقد قدر هو في البداية ظروف عمله وتجاوز عن تقصيره في حقه لأن من واجب الأصدقاء أن يتحملوا ظروف أصدقائهم، ويتفهموا أسبابهم، فلم يعتب عليه في شيء.. وتمنى له دائماً التوفيق والسداد في عمله وحياته، واكتفى بالاتصالات التليفونية المنتظمة، وبزيارته له من حين لآخر حيث كان يجده دائماً شاكياً وعاتباً عليه هو إهماله له مع أنه الذي يسعى إليه، إلى أن توفى شقيقه منذ شهور وتلفت مجدي حوله فلم يجد خله الوفي إلى جواره يشد من أزره في هذه المحنة الأليمة كسابق عهدهما معا في كل مناسبات الحياة الحزينة والسعيدة على السواء.. ومع كل ذلك فلقد التمس إليه العذر في مشاغل عمله، وتغاضى متألماً عن انتقاده لصديقه في هذا اليوم العصيب.. ففوجئ به يجيء في المساء إلى سرادق العزاء كالغرباء.. ويقف إلى جواره بعض الوقت ثم يستأذن في الانصراف لأنه سيسافر في مهمة عمل في فجر اليوم التالي، فودعه متمنياً له التوفيق، وهو يترقب عودته من سفره بصبر نافد ليجد عنده العزاء والسلوى والسند المعنوي له في محنة فراق شقيقه الذي كان بمثابة الأب الروحي للصديقين معاً منذ سنوات الجامعة، فإذا بالأيام الثقيلة تمضي ببطء مرير، والصديق مازال غائباً عنه، وهو يظنه على سفر إلى أن علم بالمصادفة أنه قد رجع من مهمته بعد يومين فقط من سفره وشغلته عنه مشاغل العمل، ودائرة العلاقات الاجتماعية الجديدة التي انخرط فيها بعد أن تولى منصبه ومضى شهر طويل ولم يرجع إلى صديقه أو يسأل عنه، وهنا فقط توقف مجدي لمراجعة علاقته به في العامين الأخيرين، واكتشف أن صديقه قد اعتاد هذا التقصير في حقه منذ أن شغل منصبه الخطير، فانفجر بركان الغضب الكامن في نفسه، وقاطعه، ولم يقبل اعتذاره له حين اتصل به بعد أسابيع، واختتم الصديق مرافعة الاتهام متسائلا: هل أكون مخطئاً إذن إذا عاملته بنفس الطريقة وبادلته إهمالاً بإهمال؟

ولم يجب أحدنا على هذا التساؤل وإنما تلفتنا إلى الصديق المتهم ننتظر كلمته، فنظر إلى صديقه عاتباً ومتألماً ثم تحدث حديثاً عاطفياً طويلاً عن عمق صداقتهما معا منذ شرخ الشباب، وكيف أنه لم يشعر طوال حياته بمثل هذا الحزن الذي يشعر به الآن وصديقه يتهمه في إخلاصه وفي صداقته، ويدعى عليه تغير روحه بعد توليه منصبه، وهو الذي لم ولن يتغير بالنسبة لأصدقائه مهما شغل من مناصب، لأن المنصب لا يدوم ولا يغني الإنسان عما يحتاج إليه من زاد نفسي صادق لا يجده إلا لدى أصدقائه المخلصين، أما عن تقصيره في حق صديقه خلال محنة وفاة شقيقه، فلقد كانت له أسبابه وظروفه، وقد شرحها مراراً لهذا الصديق الظالم والتمس لديه العذر فيها، لكنه كان قد أغلق باب التسامح في قلبه فلم يقبل بها، مع أنه كان دائماً يجد لديه الصدر المتسامح والقلب الغفور في كل مواقف الحياة المختلفة، فماذا جدَّ إذن على (روح) صديقه! ولماذا أصبح ضيق الصدر تجاهه هكذا، وكيف يحمل له هذه المشاعر السلبية وهو الذي لم يحمل له طوال العمر سوى أصدق مشاعر الحب والإخلاص والاحترام، وكيف يتهمه في مبادئه وأخلاقياته، فيدعي عليه أنه قد نسي أصدقاءه القدامي تأثراً بمنصب زائل.. ومشاغل لن تدوم!

ثم اختتم مرافعته موجهاً حديثه إلى صديقه قائلاً: إنني أفضل كثيراً مما تظن بي وبأخلاقي.. ومن المؤسف حقاً أن يكون هذا هو حكمك على شخصيتي بعد هذه السنوات الطوال.. ولا تفسير لذلك عندي سوى أحد أمرين، إما أن يكون كلانا قد خدع في الآخر كل هذه السنين، وإما أن يكون كلانا يظلم الآخر ويتجنى عليه بعد هذه الرحلة الطويلة من الصداقة والوفاء!

وتكهرب الجو في الجلسة فجأة مع هذه الكلمات الأخيرة ورفع الصديق الآخر رأسه وقال موجهاً حديثه لصالح متسائلاً وباستنكار:

- أنت خدعت فيَّ كل هذه السنين؟ إذا كان ثمة خداع في الأمر، فلا بد أن المخدوع هو أنا ولست أنت.. وعلى أية حال فيكفي هذا القدر من الإهانة.. وشكراً لك.

ثم نهض غاضباً ففزعنا إليه وأعدناه إلى مقعده بجهد جهيد، وكان أكثرنا جهداً لإرجاعه لمقعده والتمسك بعدم انصرافه هو الصديق المتهم نفسه الذي سكت قليلاً ثم استأنف مرافعته فكان ختامها مناقضاً تماماً لبدايتها.. فلقد تنازل فجأة عن مجادلة صديقه حول من الذي تغير منهما، ومن الذي خدع في الآخر إلى آخر هذا الحديث الثقيل، والتفت إلينا مستنجداً قبل أن يقول لصديقه: وهبني قد قصرت في حقك في محنة وفاة شقيقك وطوال الفترة الماضية وهب أن كل أعذاري لذلك ليست مقبولة لديك، ألم يكن في تاريخي معك ما يشفع لي عندك في التجاوز عن هذا التقصير؟ يا سيدي إنني أتنازل عن الاحتكام للأصدقاء، وأقر بخطئي وتقصيري في حقك أمامهم.. وأطلب منك العفو والسماح.. وأعدك ببدء صفحة جديدة من صداقتنا التي صمدت لعوامل الزمن كل هذه السنين.

فلماذا لا تصفح عني وأنت الرجل المتسامح مع الجميع؟ ولماذا تصر على عقابي ومقاطعتي بهذه القسوة الغريبة عليك؟

وسرت أحاسيس الارتياح في نفوسنا لهذه النغمة العاطفية المختلفة وتوقعنا أن يجيبه الصديق بكلمات طيبة وينتهي الموقف، لكنه ظل حاني الرأس صامتاً على عكس المتوقع.. فإذا بالصديق المتهم ينهض من مقعده ويتجه إليه مستأنفاً حديثه أو استعطافه له: إنني أعرفك أكثر ما تعرف نفسك.. وأعرف أنك تعيس بهذا الجفاء بيننا مثل تعاستي به وأكثر، فلماذا تقسو على نفسك وعليّ بهذا الموقف الغريب؟ وماذا تريد من ترضية أقدمها لك أمام الأصدقاء لكي ترضى وتصفح.. هل تريدني أن أقبل رأسك أمام الأخوان؟ ها أنذا أفعل.. وأقبل لا رأسك فقط. بل ويدك أيضا.. ثم اندفع إلى صديقه فقبل رأسه. وانحنى على يده يريد تقبيلها فانتفض الصديق الآخر مرتبكاً كأنما قد لدغه العقرب وسحب يده بسرعة قبل أن يقبض عليها الآخر.

وتراجع للوراء وصديقه يطارده مصراً على أن يقبل يده وهو يخفي يديه خلف ظهره ويتمتم مرتبكا: العفو.. العفو.. ودموعه تسيل على خده والدموع تترقرق في عيون الصديق المتهم وعيوننا جميعا! وفضضنا الاشتباك بينهما أخيرا وأعدنا كلاً منهما إلى مقعده فجلس مبهور الأنفاس مضطرباً بالانفعال تأثراً بهذه المشاعر النبيلة ثم تمالك أحدنا نفسه بعد قليل فضحك أو تضاحك بمعنى أصح ليغير من جو الجلسة وقال موجهاً حديثه للصديقين: لعنة الله عليكما معاً هكذا أنتما منذ عرفتكما في أيام الجامعة (تتنافران)، وتتراشقان، بالإتهامات حتى نظن أنه الفراق الذي ليس بعده تلاق بينكما ثم يقبل أحدكما رأس الآخر في النهاية وتصفو لكما الصداقة وترجع أقوى مما كانت!

وضحكنا جميعا للمداعبة، وتنفسنا الصعداء بعد عودة الصفاء بين الصديقين، ومضت الجلسة بعد ذلك بهيجة وممتعة ولاحظت منتشياً أن الصديقين قد رجع كل منهما بعد قليل إلى طبيعته مع الآخر، فراحا يتبادلان الحديث الودي.. بل و (النقار) المعتاد بينهما، ثم آذنت الجلسة بالانتهاء، فتحركنا للانصراف وودعنا صاحب البيت عند باب الشقة.. ولاحظنا أن الصديقين قد راح كل منهما يدعو الآخر لأن يتقدمه في الخروج، فابتسمنا للمفارقة بين حرارة العواطف في نهاية الجلسة.. وبين جفانها وبرودها في بدايتها، وعلق أحدنا مداعباً صالح ومجدي، على هذا (الأدب المفاجئ) في تعامل كل منهما مع الآخر، فإذا بصالح يقول وهو يرمق صديقه بحذر:

- إنه ليس أدباً.. وإنما خوف ونفاق رخيص لهذا الوغد الذي خاصمني بلا ذنب لعدة شهور.. عسى أن يجدي معه (ويثمر)فيه!

فإذا بمجدي يجيبه قائلاً لنا: هكذا هو منذ ثلاثين عاماً.. تحسبه للسانه الحلو وقدرته على التأثير في الآخرين مظلوماً، وهو في الحقيقة ظالم.. ومفتري.. وابن ستين في سبعين! وتحركنا في اتجاه الخروج مبتهجين بهذا الختام السعيد، وفي أعماقي تتردد كلمة الدكتور أحمد أمين البليغة: ما أكثر أسفي لو فقدت صديقاً، وما أكثر فرحي إذا عثرت على صديق بمعنى الكلمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كن عبقرياً واصنع ما شئت !

أمتعني هذا الكتاب وأدار رأسي!

إن مؤلفه يحذرك قبل أن تبدأ قراءته... من أنك ستندهش وتتعجب وربما تضحك لبعض ما تقرأه.. لهذا فهو يقول لك في مقدمته:

عزيزي القارئ: (اكتم أنفاسك واستفد بقدر ما تستطيع بقراءاتك لهذا الكتاب فكل كلمة من كلماته عمل من أعمال العبقرية! وسوف يوضح لك هذا الكتاب أن الحياة اليومية للعبقري ابتداء من نومه إلى هضمه إلى ابتهاجه ونشوته وأظافره.. إلخ تختلف تماماً عن حياة بقية البشر! فهذه أول يوميات - يقوله لك المؤلف - يكتبها عبقري كان من حسن حظه أن قد تزوج من امرأة فذة أسطورية فريدة!

فإذا كنت قد كتمت أنفاسك بالفعل واستعددت للقراءة فسوف أختار لك بعض فقرات وسطور مما كتبه المؤلف في يومياته.. لكي تشاركني متعتي بقراءتها. أما المؤلف فهو الفنان الأسباني العالمي العبقري سلفادور دالي الذي مات منذ سنوات واشتهر خلال حياته بتقاليعه العجيبة ابتداء من طرفي شاربه الطويلين المنتصبين إلى أعلى كإيريال السيارة إلى ملابسه (الفضائية) الخاصة التي كان يصممها لنفسه ويبدو فيها كرواد الفضاء.. إلى سيارته أو قوقعته الزجاجية التي صممها أيضا لنفسه وكان يركبها ويظهر بها في المناسبات الرسمية لكيلا يحرم البشر العاديين من رؤية العبقرية على الطبيعة إذا ما توارى داخل سيارة عادية كباقي البشر، إلى مفاجأته الصارخة كذهابه إلى جامعة السوربون في باريس لكي يلقي فيها محاضرة، راكباً سيارة رولز رويس ثمينة مملوءة عن آخرها بثمار الكرنب الكبيرة، بحيث لا يبدو منها سوى رأسه! إلى مالا نهاية له من أمثال هذه التصرفات والأفعال غير المألوفة التي يعترف لك بشجاعة وصدق في يومياته بأنه كان يفتعلها لكي يشد انتباه العالم إليه.. ولأنه يؤمن بأن ما يلتزم به البشر العاديون في حياتهم الخاصة من مراعاة الأعراف السائدة لا ينبغي أن يلتزم به العباقرة.. لأن العبقرية في رأيه ضد القيود؛ ولأنه لا يهم ماذا سيقول عنك الناس وإنما أن (يقولوا) ويظلوا يقولون دائماً مدحاً أو نقداً، لكي تبقى في بؤرة الاهتمام!

ولأن الأهم هو أن تكون عبقرياً أي متميزاً في مجالك بالعمل والكفاح الطويل وبعد ذلك لك أن تفعل ما تشاء ثمناً لما أسديته إلى البشرية من ثمار عبقريتك وعملك، ويقول لك في ذلك: (أجد عملك وفقاً للقواعد السائدة في البداية وتفوق فيه كما لا يستطيع غيرك أن يفعل، وبعد ذلك تحرر من كل هذه القواعد وافعل ما تشاء.. فلقد أصبحت عبقرياً)!

أما المرأة الأسطورية التي يشير إليها في مقدمة يومياته.. فهي زوجته جالا التي يتغزل فيها طوال اليوميات ويعتبرها هبة الله الثمينة له.. ويشير إليها في أكثر من موضع من يومياته بكلمة (كنزي)، وقد كانت قبل أن يعرفها زوجة للشاعر الفرنسي السيريالي بول ايلوار (1896 - 1952)، وطلقت منه وأحبها دالي

وتزوجها زواجا مدنيا رفضت الكنيسة الكاثوليكية الاعتراف به لموقفها المعروف من عدم الاعتراف بالطلاق الأول، فظل دالي يكافح سنوات طويلة حتى استطاع أن ينتزع موافقة الكنيسة الكاثوليكية على زواجه منها واحتفل بزواجه الديني بها بعد أكثر من عشرين عاما!

ولا أريد أن أستطرد في الحديث عن شخصية سلفادور دالي وزوجته أو (كنزه) الثمين جالا لكيلا أحرمك من متعة قراءة بعض سطور يوميات هذا الفنان العبقرى الذي بيعت لوحاته بملايين الدولارات والذي يقول (بفخر في هذا الكتاب):

الفرق الوحيد بيني وبين المجنون هو أنني لست مجنوناً! يقصد بذلك أنه يستمتع بكل ما يستمتع به المجنون من حرية أن يفعل أي شيء يريده وفي أي مكان بغير أن يلام على ما يفعل؛ لأنه ليس على المجنون حرج.. ولا على العبقري أيضاً مع فارق هام.. فالعبقري على خلاف المجنون يعي جنونه.. ويفخر به، ويستثمره لصالح فنه!

وهذه شذرات اخترتها لك بعناية من كتابة الممتع وتجنبت فيها إثارة (قرفك)، بما كتبه بصراحة فريدة وعجيبة عن (شئون العبقري المختلفة) حتى في دورة المياه.. بل وعن حركة الأمعاء الطبيعية لكل إنسان التي يصر سلفادور دالي على أنها لديه مختلفة عنها لدى البشر العاديين!

كان دالي قد انضم في شبابه إلى جماعة السيرياليين في باريس وكانت تضم مجموعة من الفنانين والكتاب الذين يدعون إلى تحرير الفنان من قواعد الفن والأدب الصارمة وتحرير الإبداع من المنطق والعقل والمعقول، وإلى النفاذ إلى عالم اللاوعي والأحلام والتهويمات الغامضة. ثم اختلف مع هذه الجماعة فطردته بسبب لوحة رسمها للزعيم الشيوعي السوفيتي لينين مستخدماً وجهه على جسم مشوه، وفي يومياته العجيبة هذه حكى كيف واتته فكرة العبث بجسم لينين.. وكيف استغرق في تخيلها فقال:

(وانغمست في رؤية تأملية عميقة.. وكما يحدث لي مراراً حين أكون مندمجاً في مثل هذه الرؤية التأملية.. فقد بللت سروالي!)

ولم تنزعج جالا التي كان قد عرفها في هذا الوقت من (أثر) الاستغراق في الرؤية التأملية عليه!.. وإنما أيدته في فكرة اللوحة السيريالية ودافعت عنه حين اشتد هجوم أعضاء الجماعة عليه، وحين هجرها مطروداً.. ونادى بالتحرر حتى من قواعد السيريالية نفسها! وتتوالى بعد ذلك غرائب هذه اليوميات بقلم دالي المفتون بنفسه وبعبقريته بلا حدود:

- في كل صباح ينتابني بمجرد الاستيقاظ فرح غامر حرت في تفسير أسبابه حتى اكتشفت سره اليوم فقط وهو كوني سلفادور دالي وإني لأسأل نفسي كل يوم ما هي الأعجوبة التي سيحققها دالي هذا النهار.. وكيف يستطيع الآخرون أن يحتملوا حياتهم بغير أن يكونوا (دالي) أو (جالا)؟

- مات رجل في المكسيك عن عمر يناهز المائة والخمسين عاما تاركا وراءه (يتيماً)، فوق المائة من العمر! إنني أود أن أعيش أطول من هذا الرجل، وأعتقد أن العلم قادر بمشيئة الله بالطبع على إطالة عمر الإنسان إلى هذا الحد!

- سمعت ثلاثة أشخاص يتحدثون عن غوامض الكون فقلت لهم: إنه لا شيء مما يحدث في الكون يدهشني، فقال لي أحدهم تخيل أنك رفعت رأسك الآن ونحن في منتصف الليل ورأيت الشمس تشرق على غير انتظار.. ألا يثير ذلك دهشتك.. إنني لو حدث لي ذلك لاعتقدت على الفور أنني قد جننت فقلت له بهدوء: بالنسبة لي فإن الأمر يختلف.. لأني سأعتقد لحظتها أن الشمس هي التي جنت!

- أثناء بحثي في أحد الكتب عن صورة أسد لكي أرسمه في إحدى لوحاتي سقط من الكتاب مظروف قديم فتحته فوجدت فيه بطاقة شكر من ريموند روسل (صديق له انتحر قبل فترة وتألم دالي لموته).. فغلبني الانفعال لذكراه، وشاهدت جالا عائدة من النافذة فخرجت إليها لاحتضن (كنزي)، الذي أرسله الله لي ورأيتها في هذه اللحظة أكثر شبهاً بأسد متروجولدوين ماير وشعرت بأني أحبها بشكل جارف فطلبت مني (أن تبصق على جبهتي) لكي تطرد منها أفكار الموت، ففعلت ذلك على الفور!

- دلقت القهوة على قميصي رد الفعل الأول لمن هم ليسوا عباقرة مثلي هو أن يمسحوها أما أنا فعلى العكس من ذلك فحتى في طفولتي كنت أتحين الفرص لأدلق القهوة التي أشربها بين قميصي وجلدي وأستمتع بالبهجة التي أحس بها والقهوة تنساب من صدري إلى بطني.. وأترقب باستمتاع اللحظة التي يجف فيها القميص وينفصل عن جلدي وتفيض عليّ في لحظة الانفصال هذه مشاعر وأفكار فلسفية تستمر طوال اليوم.. وهذا جانب مجهول من مباهج حياتي السرية التي لا يعرفها أحد!

- اعتدت أن أنظر للصحف بالمقلوب وبدلاً من أن أقرأ الأخبار فإني أتخيلها (وأراها)، بوضوح باصطناع بعض الحول في عيني واليوم وأنا أمسك بالجرائد بالمقلوب رأيت أشياء رائعة تتحرك فقررت على الفور وبإلهام رفيع من فن دالي الشعبي أن أقوم بتلوين أجزاء من هذه الجرائد! - الأغبياء يريدون مني أن اتبع النصائح التي أسديها للآخرين وهذا مستحيل بالطبع لأني مختلف تماماً عنهم!

- عند الغسق رجعت جالا من العيد وأرسلت إليّ الخادمة تطلب مني أن أنظر من نافذة مرسمي لأرى غروب الشمس الذي يلون البحر باللون البنفسجي ثم باللون الأحمر الصارخ فأشرت لها من النافذة أنني قد لاحظت ذلك.. ورأيت جالا في هذا اليوم أجمل من أي يوم آخر فركعت ثانية لأشكر الله على جمال جالا الذي يصعب على أحد غيري أن يدرك كل أعماقه!

- جاءني شاب يطلب نصيحتي قبل سفره لأمريكا فنزلت لمقابلته بالزي الرسمي (أي بملابس الفضاء)، وسألته عن طموحه فأجابني أنه يستطيع تحمل الحياة بأقل قدر من التكاليف وأن يعيش على الفاصوليا والخبز الجاف فقلت له: لكي تحقق النجاح وتأكل الكافيار يجب أن تكون شخصية مختلفة عن تلك التي جئتني بها..

فها هي أظافرك قذرة في حين ارتديت لمقابلتك زيا رسميا.. وقميصك الذي ترتديه لونه كلون السبانخ.. وهذا هو بالضبط اللون الذي يميز الفاشلين مثلك من الناجحين مثلي!

هل دارت رأسك مثلي بما فيه الكفاية؟

على أية حال فإن الانطباع الذي خرجت به من قراءة هذه اليوميات العجيبة ومن قراءة كثير مما كتب عن مؤلفها هو أن دالي لم يكن مجنوناً فعلاً ولا يمكن أن يكون كذلك رغم كثير من تهويماته وشطحاته عن نظرية النقد الفني المبني على الهلوسة التي ابتدعها وغيرها من الأفكار العجيبة.. وإنما كان فناناً عبقرياً يعي عبقريته إلى حد مذهل كما قال عنه أحد النقاد، وشديد الإعجاب بنفسه وشديد الفخر والتعالي بها ولا يرى في ذلك أي تعارض مع الفضائل، ويتخذ هذا الموقف من الحياة والآخرين متعمداً ويسميه (انتفاش الفنان العبقري) الضروري على من يحاولون إشعاره بأنهم أفضل منه أو يفهمون أكثر منه! وبسبب هذا (الانتفاش) طرد من أكاديمية الفنون الجميلة بمدريد وهو شاب صغير حين قال لأعضاء لجنة الامتحان إنه يعتقد أنه يعرف عن موضوع الامتحان (رسام عصر النهضة رفائيل) أكثر مما يعرفه كل أعضاء اللجنة مجتمعين!

وطرد من الجماعة السيريالية أيضاً بعد ذلك بسنوات في ظروف لا تختلف كثيراً عن هذه الظروف، لكنه للعجب كان من ناحية أخرى متواضعاً وبسيطاً بل وشبه متصوف في حياته الخاصة ومع الأشخاص العاديين والبسطاء والطلبة والشباب والمعجبين بفنه، وقد حقق مجده الفني بالعمل الشاق اليومي لعشر ساعات كل يوم على الأقل في مرسمه الذي يحتل جناحاً من بيته المطل على البحر في إحدى قرى الساحل القريبة من برشلونة ويبعده عن العبث واللهو والشراب الذي يبدد طاقة الإنسان في حياة الكسل والتراخي، فعاش حياة ثرية حافلة بالعمل والإبداع ولم يقتصر نشاطه على الرسم فعمل في النحت وتصميم الديكور والأزياء وزجاجات العطر ونظم الشعر وتأليف الكتب وأخرج وأنتج فيلمين مع صديق له، وقد روى في يومياته العجيبة هذه أنه كان قد تعاقد مع شركة لإنتاج العطور على تصميم زجاجة عطر جديدة لها واختيار اسمه ونسيي كل ذلك حتى فوجئ بموعد المؤتمر الصحفي الذي سيعلن فيه عن تصميمه وأحاط به المصورون بكاميراتهم وفلاشاتها وسألوه عن اسم العطر الجديد فنظر إلى كاميرات المصورين وقال لهم من وحي اللحظة: (فلاش)، أي وميض فصرخ الصحفيون إعجاباً وسألوه عن شكل زجاجة العطر الجديد فأخذ من أحد المصورين لمبة فلاش محروقة وبططها قليلا بيده ثم قال لهم: هكذا! فتعالى الإعجاب والاستحسان، وقبض دالي المبلغ المتفق عليه من الشركة ونزل العطر الجديد إلى الأسواق بهذا الاسم وبشكل فلاش الكاميرا! وقد كان العبقري متديناً بقدر ما كان متمرداً على كل شيء تقليدى ومألوف في الحياة.

وقد رسم وكتب وصمم وأبدع وهو في رعاية زوجته (جالا) التي أحبها وأحبته وفهمت شخصيته كما لم يفهمه أحد في حياته..

وتفهمت كل أطواره الغريبة فكانت لا تجرؤ على الاقتراب من مرسمه وهو منشغل بالرسم حتى لا تشتت تركيزه وترسل له وهو يعمل رسائل حب ملتهبة من حين لآخر مع الخادمة وتدير نيابة عنه أعماله وحياته وكل شئونه المالية والأدبية والاجتماعية ويسلم لها بأنها أكثر حرصاً على مصلحته منه هو، حتى ليصعب عليه تخيل الحياة بدونها، وذات يوم كان على مائدة العشاء مع بعض الأصدقاء ودار حديث عن الموت، فقالت جالا أنها لا تخشاه.. ولا يزعجها فيه إلا أن تتخيل صعوبة حياة دالي وحيداً بعدها، فإذا الفنان العبقري (المنتفش) ينفجر في البكاء كالأطفال وكان حين دار هذا الحديث فوق الستين من عمره، ولقد طال به العمر وتحقق ما خشيته جالا ذلك المساء فسبقته إلى العالم الآخر عام 1982، فاختلت حياة دالي وزهد الدنيا وتكالبت عليه الأمراض وأصيب بالشلل الرعاش وفقد القدرة على الإمساك بفرشاة الرسم إلى أن مات بعد زوجته الحبيبة بسبع سنوات عن 84 عاماً، وخلف وراءه مئات إن لم تكن آلاف اللوحات الجميلة العبقرية التي تزين جدران المتاحف العالمية وبيوت هواة الفن الجميل.. فهل أدركت الفارق الحقيقي بين العبقرية.. والجنون؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلامتك من الآه

من أين جاء هذا الشاعر الشعبي المجهول بكل هذه الرقة والعذوبة والفهم العميق لحقائق الحياة؟

ومن الذي ألهمه كل هذه الحكمة فعرف بفطرته أن السعادة ليست في النهاية سوى في راحة القلب وسكونه إلى من يحبه من البشر.. ويحبونه؟

لقد تغزّل في حبيبه.. وتشكى من بعده عنه وتشوق إليه.. ثم رقت مشاعره لكل البشر فاختتم قصيدته العامية بهذا الدعاء الإنساني الجميل: يارب.. كل من له حبيب لم تحرمه منه!

فأي نفس محبة للبشر وأي قلب حكيم؟

إنه يتعذب ببعد حبيبه عنه.. ويعرف لسعة الفراق ونار الحرمان، ولا يريد لأحد غيره أن يكتوي بما يعانيه فيلخص لنا لغز السعادة كله في هذه الكلمات البسيطة المعبرة، ويقول لنا بغير فلسفة إن السعادة هي أن تحيا مع من تحب ويحبونك وألا تحرمك الأقدار منهم ولا من صحبتهم ومحبتهم واهتمامهم بأمرك!

لقد تمنيت حين سمعت هذا الموال الشعبي لأول مرة أن أعرف هذا الشاعر المجهول، وأن أحييه على رقة مشاعره وصفاء نفسه وفهمه الصحيح للحياة، فالسعادة حقاً وصدقاً ليست في الثراء ولا في النجاح العملي في الحياة وحدهما وإنما أولاً وبعد كل شيء في راحة القلب بين من يحبهم الإنسان ويحبونه، أما باقي أهداف الحياة فهي تزيد أو تنقص من هذه السعادة الحقيقية لكنها أبداً لا تعوض الإنسان عنها إذا افتقدها أو غابت عنه.

ومن قبل تمنيت أن أعرف مؤلف تلك الأغنية الشعبية التي كان يغنيها المطرب محمد العزبي منذ ثلاثين عاماً في أحد استعراضات فرقة رضا للفنون الشعبية، وكنا نضحك لها وقتها ونتندر بها لما فيها من خيال ومبالغة، ثم علمتنا الأيام بالثمن المرير أن معانيها لا خيال فيها ولا مبالغة.. بل هي حقيقية وواقعية وبعيدة النظر أيضاً!

فقد كان محمد العزبي يغني من كلمات هذا المؤلف المجهول:

- قالوا لي عدِّي بحور الشوق.. عدّيتها

- وقالوا لي هِدْ الجبال بإيديا هدِّيتها

- وقالوا لي عد النجوم.. بالواحدة عدّيتها

- والمستحيلات من الأحلام شديتها

- وكل شدة تهون بالحب شدتها

- وقالوا لي إنسى حبيبك قلت ما أقدرشي

- آهي دي اللي أصعب من الدنيا وقسوتها!

ومعه الحق والله هذا المؤلف الحكيم، فما تصورناه خيالاً قد عرفنا بتجربة الأيام أنه حقيقة، وعرفنا أن الإنسان قد يستطيع في بعض الأحيان أن يهدم الجبال ويعبر البحار ويهزم المستحيل، إذا صح العزم وصدقت النية، لكنه لا يستطيع في نفس الوقت أن ينسى بسهولة حبيباً غاب عنه، أو عزيزاً فقده.. أو غالياً حرمته الأقدار منه!

لأنه إنسان.. ولأنه ضعيف أمام الألم وأمام فقد الأحبة والأعزاء.

(والأحبّة)، في هذا الموال وفي تلك الأغنية الشعبية ليسوا فقط فتاة القلب أو فتاه، وإنما هم كل البشر الذين يحبهم الإنسان في الحياة ويأنس بصحبتهم.. ويفتقدهم إذا غابوا عنه.. وتنقص بهجة الدنيا الشيء الكثير من حوله إذا حرم منهم وهم أيضاً وكل من يهتف لهم القلب من أعماقه مع المطرب العراقي كاظم الساهر: سلامتك من الآه! ويشعر بأن آهته تجرح صدره هو قبل أن تخرج من فمه.

ومنذ أسابيع أثار طالب جامعي شاب شجوني برسالة حزينة يروي لي فيها أنه نشأ يتيم الأب فلم تع ذاكرته الكثير عن أبيه الذي رحل عن الدنيا وهو في الرابعة من عمره، لكنه وجد لدى أمه كل ما كان يحتاج إليه من حماية نفسية ورعاية وعطف فانتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى بلغ مرحلة الجامعة وهو يعيش مع أمه وحيداً في حين تزوج إخوته وانشغلوا عنه بدنياهم الخاصة، ثم رحلت أمه فجأة عن الحياة قبل أن يتم دراسته الجامعية فأحس بمرارة اليتيم الحقيقي لأول مرة في حياته مع أنه قد نشأ يتيم الأب منذ طفولته، وشعر بأنه لم يعد له في زحام البشر أحد يهتم بأمره ويعنى بصحته ويسعد لسعادته، ويحزن لتعاسته، فحاول أن يلتمس السلوى لدى أخوته الكبار، فلم يجد لديهم ما يحتاج إليه من عطاء نفسي تشتد حاجته إليه، فانطوى على نفسه وزهد كل شيء في الحياة حتى كاد يعتذر عن عدم دخول الامتحان، وقال لي فيما قال أنه يعجب لأمر زملائه في الكلية الذين يتشكون دائماً مما يفرضه عليهم الآباء والأمهات من رقابة وقيود، فيلومونهم على السهر خارج البيت لأوقات متأخرة، ويحاسبونهم عن انشغالهم عن دروسهم.. ويتشممون ملابسهم خوفاً من أن يكونوا قد ابتلوا بآفة التدخين.. إلخ، فيسمع هو شكاواهم من هذه القيود، وتلهفهم على حياة الحرية الخالية من كل رقابة عالية، وهو يتحسر في أعماقه على حاله، ويقول لهم إنه يتمنى أن تسخو عليه الحياة ببعض هذه (القيود) التي يشكون منها، لأنها تعني أن هناك في الحياة من يهتم بأمرهم ويطلب لهم الخير، ويحاول حمايتهم من الضياع.. أما هو فيخرج من مسكنه الذي يعيش فيه وحيداً فلا يسأله أحد متى سترجع إلى البيت كما يسألونهم، ويعود في الليل فلا يسأله أحد لماذا تأخرت.. أو أين كنت.. ومع من أمضيت كل هذا الوقت، ويزهد في الذهاب إلى الكلية وفي المذاكرة، فلا يسأله أحد لماذا لم تخرج إلى كليتك، ولا لماذا لا تذاكر دروسك؟، لأنه لم يعد له في الوجود كله من يهتم بأمره سواه.. ولم يعد هناك من يتحمل مسؤوليته عنه، وهو يكره هذه (الحرية)، التي يشتهيها زملاؤه من أعماق قلبه ويعرض أن يبادل زملاءه بها.. فينعم هو بحياة الأسرة وقيود الحب والإهتمام التي حُرِمَ

منها، ويتنازل لهم عن حياة (الحرية)، التي يطلبونها، ويرون فيها بقصر نظرهم وغفلتهمأقصى المنى!

ثم يختتم رسالته لي طالباً مني أن أبحث له عن (أسرة) تهتم بأمره وتفرض عليه هذه (القيود) الغالية وتسأله عن دروسه وتنهره إذا أهملها أو تراخي فيها أو تأخر في السهر خارج البيت!

ولأننا نحن البشر قد جبلنا على أن نشعر بالمفقود، أكثر مما نشعر دائماً (بالموجود)، فلقد تفهمت جيداً عمق وحدته وغربته النفسية وإحساسه المؤلم بفقدان النصير وهوان الشأن، بعد أن غابت عن دنياه من كانت تهتم بأمره، ودعوته لمقابلتي في مكتبي فجاءني في موعده ووجدت فيه شاباً صغيراً كسير النفس، واستمعت إلى قصته ومتاعبه وحاولت قدر جهدي تهوينها عليه وتشجيعه على تحمل أقداره، ثم قدمته إلى عدد من الأسر الكريمة التي اتصلت بي عقب نشر رسالته وطلبت مني أن يتصل بها، لكي يصبح فرداً من أفرادها، يهتمون بأمره ويحثونه على مواصلة دراسته، ويبعدون عنه شبح الوحدة والاكتئاب، وتم الاتصال بهذه الأسر من مكتبي فرحبت به ودعته لزيارتها وتعهد أكثر من أب فاضل لأبناء في مثل سنه بأن يعتبره واحداً من أبنائه ويتابع معه دراسته ويشجعه على استكمالها، ووعدته أكثر من أم فاضلة بهديه كبيرة إذا اجتاز امتحان هذا العام بنجاح!

وتذكرت وأنا أستمع إليه، حالي حين سافرت من مدينتي الصغيرة بالأقاليم إلى القاهرة لالتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة وأقمت في مسكن بالقرب من الجامعة، وغادرني شقيقي الأكبر بعد أن اطمأن على استقراري في سكني عائداً إلى مدينتنا، فوجدت نفسي فجأة وأنا في السابعة عشرة من عمري أعيش وحيداً تماماً في المدينة الصاخبة، وأتمتع بكامل حريتي في الدخول والخروج من البيت والسهر في الخارج إلى أي وقت أشاء دون أن ينتظرني أحد ليسألني أين كنت، أو ينهرني لتأخري عن التاسعة مساء في الخارج لبضع دقائق أو يتحرى التزامي بالسلوك القويم داخل البيت وخارجه فلم تمض أيام قليلة على هذه (الحرية) الكاملة التي تمنيتها من قبل وأنا طالب بالمرحلة الثانوية، حتى وجدتني أضيق بها تماماً، وأشعر بحنين جارف إلى حياة الأسرة الدافئة، وأفتقد كل شيء فيها حتى ما ضقت به من قبل كقيود عدم السهر في الخارج، ومضت عليّ أيام (الحرية) بطيئة ومملة وقاتلة، ثم تركت كل شيء فجأة بعد 20 يوماً بالضبط وحملت حقيبتي وركبت القطار لمسافة 180كيلو متراً عائداً إلى بيت الأسرة، وفوجئ بي أبي يرحمه الله داخلاً عليه غرفة نومه وقت الأصيل فاتحاً ذراعي كأنما قد غبت عنه في (المهجر)، 20 عاماً وليس 20 يوماً، ودهش أبي لمرأي لأول وهلة لكنه لم تغب عنه دوافعي النفسية لهذه العودة السريعة، فضحك طويلاً ورحب بي بحرارة وسألني عن أحوالي في الكلية وفي المسكن وأجبته بأن كل شيء على ما يرام لكنني قد جئت في (زيارة) عادية لأسرتي! وأقمت بين عائلتي أسبوعاً (استمتعت)، فيه بالقيود التي ضقت بها من قبل حمقاً، وجهالة مني.. وتثاقلت في العودة للقاهرة الصاخبة التي كنت أحلم من قبل بالحياة وسط

أضوائها ومغرياتها، وأبي يشفق عليّ من أن يحثني على العودة لدراستي وكليتي، وينهى أمي كما علمت فيما بعد عن أن تطلب مني هذه العودة حتى لا تفوتني أيام الدراسة، إلى أن ارتويت من نبع عطاء الأبوين لأبنائهم ودفء علاقة الإخوة واالشقيقات، ثم حزمت أمري أخيراً وقررت العودة للقاهرة فودعني أبي وهو يرجوني أن أحاول الصمود لحياة الوحدة فترة أطول حتى لا انقطع فترات طويلة عن الكلية، ووعدته بذلك وأنا أقول لنفسي: آه لو تعلم كم كانت هذه الأسابيع الثلاثة التي ابتعدت فيها عنكم ثقيلة وقاسية حتى كنت أعد الأيام الباقية على اكتمالها لأرجع إليكم.

ثم اعتدت بعد ذلك حياة الوحدة شيئاً فشيئاً حتى ألفتها وألفتني، وأصبحت لا أرجع لأسرتي إلا كل شهر مرة ثم كل شهرين.. لكن إحساسي بإنتمائي لأسرتي ظل دائماً قائماً وقوياً، ثم بدأت أولى خطواتي في التدريب على الصحافة بمجلة روز اليوسف وأنا مازلت طالبا بالسنة الأولى بقسم الصحافة بكلية الآداب، واحتجت ذات مرة للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية لمدة يومين لإعداد تحقيق صحفي في الميناء، فوجدتني بتلقائية اتصل بأبي تليفونياً لأستأذنه في هذا السفر، مع أني أعيش على بعد 180 كليو مترا منه ولو سافرت للإسكندرية ورجعت لما علم بسفري ولا برجوعي، لكنه الإحساس بوجود (الأب) في حياة الإنسان حتى ولو كان بعيداً والإحساس بوجود المرجعية التي ينبغي أن يرجع إليها الابن في شئونه الهامة واختياراته المصيرية في الحياة، وهذه (المرجعية) هي المظلة التي يستظل بها الأبناء في حياة آبائهم وأمهاتهم، فتحميهم من عوادي الدنيا وتجنبهم الكثير من العثرات وتيسر لهم الكثير من الصعاب فمن عجب إذن أن يضيق بها البعض أو يتسخطوا عليها، وعلى ما تمثله في أذهانهم غير الواعية من قيود أو تسلط! إنها (عز) البنوة لآباء وأمهات يهتمون بأمر أبنائهم ويطلبون لهم السعادة والأمان في الحياة ويتحملون عنهم مسؤوليتهم التي اكتشف هذا الشاب كاتب الرسالة كم هي ثقيلة حين وجد نفسه مضطراً لتحملها وحده، لكنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا يعرف لهذا (العز) قدره الحقيقي إلا من يحرم منه، كما حرم منه هذا الشاب وكما حرم منه كثيرون غيره أعفتهم الأقدار.. من هذه (القيود).. وكمثلي أنا أيضاً حين فقدت أبي وأنا في الواحدة والعشرين من عمري وكنت قد تخرجت في كليتي وبدأت العمل في (الأهرام)، فشعرت كما شعر هذا الشاب بأن المظلة التي كانت تحميني من صواعق السماء قد رفعت عني فجأة وأصبح أمري لا يهم أحداً في الوجود كله سواي.. سافرت أم أقمت؟ نجحت في الحياة أم فشلت.. سعدت أم شقيت.. طعمت.. أم زهدت الطعام.

أما (قيود) الآباء والأمهات التي يضيق بها بعض الأبناء بطراً وغفلة، وأما حياة الحرية الخالية من كل قيد التي يحلم بها أمثالهم فآه لو أدركوا معناها الحقيقي، وفهموه حق فهمه إذن لعرفوا أنهم إنما يحلمون بأن يتنازلوا عن (عز) اهتمام الآباء والأمهات بهم، ويطلبون لأنفسهم بؤس المحرومين من هذه النعمة الجليلة الذين فقدوا من كانوا يقدمون إليهم الحب والعطاء والرعاية والاهتمام على طبق من فضة وبلا غرض سوى إسعادهم وخيرهم وصلاح أمرهم.

أما (الحرية)، التي يحلمون بها.. فمتى سعدت بها كلاب الطريق التي لا يسألها أحد عما تفعل ولا يعني بها أحد.. ولا يهتم بأمرها أحد؟.

إنها أيضاً تحيا بلا رقابة ولا قيود.. وتهيم على وجهها أنى شاءت ولا يحاسبها أحد عن شيء.. ولا تجد من يقول لها حين تتأوه:

سلامتك.. من الآه! سلامتك من الآه! كما يفعل الآباء والأمهات مع أبنائهم قولاً وعملاً.. وسراً وعلانية.

فمن ذا الذي يرفض كرامة الآدمية، ويطلب مهانة حياة الكلاب الضالة التي لا رقابة عليها ولا قيود!

ومن ذا الذي يسمع هتاف هذا الشاعر الشعبي المجهول ودعاءه إلى الله بألا يحرم أحدا من حبيبه ولا من رعايته له واهتمامه بأمره، ثم لا يردد وراءه صادقا: آمين يارب العالمين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2) سلامتك من الآه

هل تريد مثالاً آخر النعيم، الحرية الكاملة التي يحلم بها بعض الأبناء في سن الشباب بعيداً عن الأهل (وقيود) الأسرة وضوابطها؟

لقد كنت مثلهم كما حدثتك في المقال السابق أضيق وأنا طالب بالمدرسة الثانوية بقيود عدم السهر خارج البيت بعد التاسعة مساءً وبمراقبة الأهل لسلوكي وحرصهم على التزامي بالطريق القويم، وأتصور أنني حين أرحل للقاهرة لألتحق بجامعتها وأعيش فيها وحيداً حراً من كل القيود، سوف تكون حياتي بها نعيماً استمتع فيه بحريتي الكاملة بلا قيود ولا ضوابط إلا ما يمليه عليّ ضميري وإحساسي بالواجب.. أذهب للجامعة أو لا أذهب.. أنام متأخراً أو مبكراً.. أستذكر دروسي أو لا أستذكرها.. أخرج للسهر في وسط المدينة أو أقبع في سكني لأقرأ في هدوء، ولقد استمتعت بوحدتي وحريتي الكاملة بالفعل حين التحقت بالجامعة ووجدت نفسي أعيش (حراً) كالطائر الطليق، لكن هذا الاستمتاع لم يطل أكثر من أسابيع قليلة وحننتُ بعدها إلى كل ما ضقت به من قبل، وبعد عامين من التنقل بين البانسيونات الصغيرة، استقريت في شقة صغيرة من غرفتين بحي المنيل القريب من الجامعة وانتظمت في العمل الصحفي بالأهرام إلى جانب دراستي بكلية الآداب، فإذا بوطأة هذا (النعيم) الذي حلمت به من قبل تشتد عليّ أكثر وتؤثر حتى على قدراتي في العمل وفرصتي في المنافسة الصحفية بيني وبين زملاء المهنة! وكان ذلك منطقياً إلى حد كبير فزملائي من شباب الأهرام وقتها يقيمون مع أسرهم التي ترعاهم وتنظم لهم حياتهم فلا ينشغلون إلا بالعمل والتنافس فيه، في حين أعيش أنا وحيداً وأجد نفسي لست فقط مسؤولاً عن التفوق في العمل والدراسة، وإنما أيضاً عن تدبير شئون حياتي الخاصة وحدي فيستهلك جانب (الخدمات الأساسية) التي لا يكاد يشعر به الزملاء (المقيدون) بقيود الأهل، جزءاً كبيراً من طاقتي الجسمانية والنفسية، فحتى أبسط مظاهر هذه (الخدمات،) التي يتلقاها من كانوا يشكون من قيود الأسرة كان يشكل بالنسبة لي مشكلة عويصة يمكن أن تؤثر على عملي ونجاحي فيه، (كخدمة) الإيقاظ من النوم على سبيل المثال!. وعلى حين كان (التعساء)، بقيود الأهل من الزملاء يجدون من يوقظهم من نومهم كل صباح في وقت مناسب للذهاب للعمل ويظلون إلى جوار فراشهم ليعيدوا عليهم الكرة مرة بعد أخرى برفق وحنان حتى يتنبهوا، كنت أستجدي أنا عم سيد (مكوجي الكواكب)، الذي كان يبدو لي وقتها حلاً لأصعب المشكلات، أن يرسل أحد صبيانه في الثامنة كل صباح ليطرق باب سكني ويظل واقفاً أمامه حتى أفتح له الباب، وإلا تأخرت عن العمل.. أو استغرقني النوم حتى الظهيرة، فقد كنت أسمع صوت المنبه وأعود للنوم من جديد بتأثير الإجهاد فإذا لم ينبهني أحد ضاع مني يوم العمل.. وتعرضت للمساءلة من رؤسائي!.

وبينما كان (المعذبون) بالقيود يجدون الشاي الساخن والإفطار الشهي في انتظارهم بعد أن ينهضوا من فراشهم على أيدي أمهاتهم كنت أفتح أنا الباب

للصبي المنقذ ثم أهرول لارتداء ملابسي على عجل ويا ويلتي إذا نسي عم سيد ذات صباح إرسال صبيه إليّ، أو إذا تأخر هو نفسه في فتح دكانه، أو إذا تراخى في غسل ثيابي وكيها، ثم أغادر مسكني بلا شاي ولا إفطار لأصل إلى العمل في الموعد الملائم، أما الشاي والإفطار فلسوف أتناولهما خطفاً في العمل، وأما ذقني التي لم أجد وقتاً لحلاقتها فلسوف أنتهز فرصة دقائق خالية بعد إثبات موعد حضوري، وأتسلل إلى أقرب محل حلاقة لأحلقها فيه اختصاراً للوقت والجهد، وأما يومي كله بعد ذلك فلسوف أقضيه في العمل من الصباح وحتى العاشرة ليلاً أو حتى منتصف الليل في بعض الأحيان كشوط واحد متصل بلا راحة.. ولا قيلولة.. ولا عودة لدفء الأسرة لبضع ساعة في الظهيرة، فأصل إلى نهاية اليوم وقد تهدّلت ملابسي واتسخت ياقة قميصي، وظهرت آثار الإعياء والإجهاد واضحة على وجهي، وفقدت معظم حيويتي في حين يرجع (المعذّبون)، بقيود الأهل إلى بيوتهم في الظهيرة فيغتسلون من غبار الطريق ويتناولون طعام الغذاء الذي ينتظرهم بلا عناء، ويستريحون في الفراش لبعض الوقت ثم يبدلون ملابسهم ويعودون في المساء للعمل متألّقي الوجوه بدماء الراحة وعناية الأهل واهتمامهم.

وحين سألني أحدهم ذات يوم ملاحظا إعيائي وأنني لا أكاد أفارق الأهرام حتى في أوقات خلوي من العمل، لماذا لا ترجع بيتك كل يوم وتستريح بعض الوقت لتستطيع الاحتفاظ بنشاطك في المساء، أجبته بلا وعي: ولمن أرجع إليه في النهار، وأنا أضيق أصلاً بوحدتي فيه في الليل؟

ومضت حياتي على هذا النحو بضع سنوات أخرج في الصباح في موعد مناسب إذا تذكرني عم سيد، أو متأخراً عن موعدي إذا نساني، وأرجع للمسكن الخالي في الواحدة أو الثانية صباحاً، فإذا رجعت لم يسألني أحد لماذا عدت، وإذا غبت عنه بالأيام لم يسألني أحد أين كنت؟

وقد تباعدت المسافات تدريجياً بيني وبين أسرتي التي تقيم في مدينتي الصغيرة فلم أعد أجد الفرصة المناسبة لزيارتهم إلا كل شهرين مرة وإن كانت الاتصالات التليفونية بيننا مستمرة في مواعيد منتظمة، ومن حين لآخر تتحفني أمي بطرد من الطعام الساخن الذي يحمله لي أحد القادمين للقاهرة في زيارة تجارية أو عائلية فأدعو إليه الزملاء والأصدقاء ويعوضني عن رداءة طعام المطاعم الصغيرة لبعض الوقت، إلى أن أديت امتحان الليسانس، وفرغت من هم الدراسة، وحلمت بالتفرغ التام للعمل الصحفي والمنافسة الساخنة بين زملاء البداية الواحدة فيه.

وأقبلتُ على عملي بالأهرام بحماس شديد لأعوض انقطاعي عنه خلال فترة الامتحان، فلم تمض أيام على عودتي حتى بدأت أشعر بإعياء شديد وصداع شبه دائم وفسرت ذلك بتأثري بما بذلت من جهد خلال أيام الامتحان التي كنت أصل الليل بالنهار فيها بلا انقطاع لأضمن النجاح وواصلت إقبالي على عملي بغير التفات لما أعاني منه من إجهاد، فلاحظت بعد أيام أخرى أن إعيائي يزداد.. وصداعي لا يفارقني.. وشيئاً جديداً من الغثيان يعتريني، (فأدركت)، أنني قد

أصبت بنوبة برد عارضة، ولم أكن أضيق بشيء كما أضيق بنوبات البرد والأنفلونزا، لأنها تفقدني قدرتي على العمل فعالجت نفسي بأدوية البرد وترقبت الشفاء بصبر ر نافد، فلم تتحسن حالتي وإنما ازدادت سوءا وفقدت شهيتي نهائياً للطعام، ولم يعد يستقر شيء منه في معدتي، وكدت ألا أقوى على المشي، ومع ذلك فأنا مستمر في الذهاب إلى العمل ومقابلة المسؤولين الذين أجري تحقيقاتي الصحفية معهم، وكتابة التحقيقات في مبنى الأهرام القديم حتى الثانية صباحاً كل يوم وبغير أن أتناول إلا أقل القليل من الطعام، وإذا تناولت شيئاً منه لم يستقر في معدتي لدقائق، وأنا أتعجب لحالي، ولا أجد تفسيراً لما أعانيه، وليس حولي من يلاحظ أي تغيرات ملفتة للنظر في حالتي الصحية فينزعج لها كما يفعل الأهل مع أبنائهم، لأن هذا امتياز لا يعاني منه إلا (المعذبون) بقيود الأسرة والأهل!

ولأن الأمر كذلك فلقد ظللت تسعة أيام كاملة وأنا أعاني من الإعياء الشديد والغثيان وارتفاع درجة الحرارة الذي يصل إلى حد (الحمى)، بغير أن أستشعر خطورة ما أعاني منه، ولا أدرك حقيقته إلى أن نهضت من نومي ذات صباح فوجدت ساقي لا تقويان على حملي ووجدتني لا أستطيع ارتداء ملابسي للذهاب للعمل فقررت في هذه اللحظة فقط أن أتعامل مع حالتي بشيء من الاهتمام وأن أعرض نفسي على الطبيب! وأمضيت الوقت مستلقياً في فراشي أتردد بين التنبه والغيبوبة بتأثير الحرارة في انتظار مواعيد عيادات الأطباء في المساء بغير أن أتناول طعاماً ولا شراباً ثم تحاملت على نفسي في النهاية وارتديت ملابسي ومشيت ببطء شديد إلى عيادة طبية قريبة من مسكني. وانتظرت دوري في الدخول إلى الطبيب بفارغ الصبر. وفحصني الطبيب الذي كان معروفاً وقتها بأنه يعالج عبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب، ثم رجع إلى مكتبه وسألني سؤالاً بدا لي وقتها غريباً على مسامعي إذ قال لي: من معك الآن من أهلك في قاعة الانتظار لكي أتحدث معه عن نظام التغذية خلال فترة العلاج؟ فأجبته بعفوية بأنه لا أحد معي وبأنني قد جئت وحدي للعيادة، فلم يستوعب ما قلته له للوهلة الأولى، وسألني ولماذا لم يجيء معك أحد من أهلك وأنت في هذه الحال؟ فأجبته بأن أهلي يعيشون في مدينة أخرى وأنني أعيش وحيداً في مسكن قريب من العيادة؟ فكرر عليّ السؤال متعجباً: وحدك.. وحدك بلا أي أحد من أسرتك؟ فأجبته بالإيجاب، فنظر إليّ صامتاً للحظات ثم قال لي إنه لابد لي من دخولي المستشفى على الفور ليس فقط لأن حالتي تستدعي ذلك، وإنما أيضاً لأنه كطبيب لا يستطيع أن يسمح لي بالانصراف من العيادة الآن بعد أن علم بأنني أعيش وحيداً ولن أستطيع رعاية نفسي في مرضي ولا تنفيذ النظام الغذائي المطلوب خلال فترة العلاج.

وانزعجت للفكرة بشدة ورجوته بإلحاح أن يعدل عنها ويسمح لي بالتداوي في مسكني مع تأكيدي له أنني سألتزم بكل تعليماته فتردد في الموافقة طويلاً ثم قال لي بحزم: لا أستطيع السماح لك بذلك إلا إذا دعوت بعض أهلك للإقامة معك لرعايتك خلال مرضك فهل تعدني بذلك وتعطيني كلمة شرف بتنفيذه؟ ووعدته بما أراد وأنا أعرف في قرارة نفسي أنني لن أتصل بأهلي ولن أزعجهم بمرضي ولا بطلب مجيء أحد أفراد أسرتي للإقامة معي في هذه

الظروف ولا تسلني لماذا لم أفكر في ذلك وقد كان ضرورة تمليها الظروف وليست ترفاً أملك رفضه، فكل إنسان سجين طبعه في النهاية وقد كان من طبعي وأظنه مازال كذلك أن أتكتم معاناتي الشخصية حتى عن أقرب الناس لي مشفقاً عليهم من إزعاجهم بمتاعبي، وهكذا عدت إلى مسكني وأنا أفكر فيما أستطيع أن أفعله لتنفيذ تعلميات العلاج والغذاء، ولم يكن يؤرقني تناول الدواء في مواعيده الدقيقة بقدر ما كان يؤرقني ذلك النظام الغذائي الغريب الذي حدده لي الطبيب فقطعت الطريق مهموماً وأنا أتساءل.. وأنى لي أن ألازم الفراش أسبوعين كاملين أعيش خلالهما على العصائر الطازجة وحدها، وليس حولي من يعدها ويقدمها لي في فراشي بدون أن أتحرك أدنى حركة كما طلب مني هذا الطبيب المتفائل، وكيف لي (بكَبد) دجاجة مسلوقة واحدة لتكون طعام غذائي الوحيد بعد بداية العلاج بثلاثة أيام ومن يطهوها ليقدم لي كبدها وحده ويلقي بالدجاجة نفسها في صندوق القمامة أو يتناولها هو بالهناء والشفاء؟!

ولم أكن في حاجة لأن أدرك أنني سوف أعيش طوال هذين الأسبوعين على السوائل المتاحة والتي يوفرها لي البواب كلما عثرت عليه، أو تحاملت على نفسي وغادرت شقتي وأنا الممنوع من الحركة لأناديه وأطلب منه ذلك، وأن هذه السوائل لن تعدو غالباً زجاجات المياة الغازية والماء الصرف من الصنبور، لأن العصائر تحتاج إلى جهد في تحضيرها؛ ولأن معلباتها لم تكن شائعة ولا منتشرة في المحلات كما هو الحال الآن، فرجعت إلى بيتي ومعى بعض زجاجات الكوكاكولا. ولم أجد البواب في موضعه المختار لأرجوه أن يشترى لي المزيد منها، وتعلق أملي بصبي المكوجي الذي سيطرق بابي في الصباح.. وخلعت ملابسي بصعوبة وتناولت حبات الدواء.. ثم تهالكت في فراشي، ودخلت فيما يبدو في غيبوبة الحمى فلم أدر بما حولي ولا بما مر بي من الوقت، حتى تنبهت فجأة على طرقات عنيفة على باب مسكني فأصبحت مشكلة حياتي في هذه اللحظة هي كيف أقطع المسافة من فراشي إلى باب الشقة ثم بلغته في النهاية، فإذا بي أرى أمامي آخر إنسان أتوقع أن يزورني في مسكني وهو خال لي كان يقيم يرحمه الله في ضاحية مصر الجديدة ويعمل بالتعليم، وكنت أزوره كل بضعة أسابيع لكنه لكم يكن معتاداً على زيارتي في بيتي لأنني خارجه على الدوام وقد قادته الصدفة البحتة ذلك اليوم لزيارتي حين وجد نفسه قريباً من مسكني في طريق عودته من درس خصوصي لبعض طلبة الثانوية العامة، فقرر أن يمر بي ليسألني عما أخرني عن زيارته طوال الأسابيع الماضية! وكاد بعد أن طرق الباب بضع مرات بلا استجابة أن يرجع من حيث جاء لولا أن أبلغه المكوجي بأنه قد رآني داخلاً العمارة قبل ساعات، ويبدو أن إعيائي كان ملفتاً للنظر فسألني على الفور عما بي، فوجدت نفسي أجيبه بأنها نوبة برد بسيطة وسوف تذهب لحالها! وكان من الممكن أن ينخدع خالي بما حاولت إيهامه به، لولا أن أرادت مشيئة الله غير ذلك فتشكك فيما أقول حين رآني لا أقوى على الجلوس أمامه وأنا غارق في بحر من العرق، ووجهي شديد الاصفرار، فإذا به ينهض فجأة ويطلب مني في حزم غريب جمع ملابسي لأنه سيصطحبني معه إلى بيته! وحاولت الاعتذار عن ذلك بكل الطرق فلم يستجب لرجائي ولم يقبل أن يتركني في مسكني مع وعد مني

بالالتزام بالراحة والعلاج، وراح يجمع ملابسي عنوة ويضعها في حقيبة صغيرة ويساعدني على النهوض من مقعدي ثم نقلني بسيارته وبملابس النوم التي كنت أرتديها إلى مصر الجديدة، وخلال الطريق أجبته وأنا بين اليقظة والنوم على أسئلته عن بداية المرض فعرف أنني أعاني منه منذ 10 أيام، ولكني لم أنقطع عن العمل ولم أستشر الطبيب إلا ذلك اليوم إلى أن بلغنا مسكنه فلم أكد أدخله حتى اتجهت إلى الفراش واستلقيت عليه بدعوى أنني سأستريح بعض الوقت فما أن فعلت حتى غبت عن الوجود كله، وفتحت عيني ظهر اليوم التالي ففوجئت بوجود أمي إلى جوار فراشي. ومعها بعض أهلي، وتعجبت متى جاءت وكيف قطعت المسافة الطويلة بين بلدتي والقاهرة بهذه السرعة وتحملت من عتاب الأهل الكثير لإخفائي نبأ مرضي عنهم ولمعارضتي في الانتقال إلى مسكن خالي، ولم تمض ساعة حتى عادني في الفراش طبيب آخر أخضعني لاستجواب دقيق عن بداية الأعراض وتطورها ولم يخف دهشته لإهمالي لنفسي وصحتي، إلى حد أن أعمل 12 ساعة كل يوم لمدة تسعة أيام وأنا أعاني أصلاً من أعراض مرض التيفود القاتل وبغير أن أتنبه لخطورة الحال، مما لا يليق بشاب جامعي (مثقف)، مثلي كما قال، ثم أصدر أوامره لي بعدم مغادرة الفراش لمدة 15 يوماً كاملة وصدعت بأوامره ضعفاً وعجزاً ولازمت الفراش بلا حراك طوال هذه الفترة، وامتنعت عن الطعام كله ما عدا السوائل ثم سمح لي بعد ثلاثة أيام بتناول قطعة واحدة من كبد الدجاج لا تشبع طائراً صغيراً، ففقدت 11كيلو جراما من وزني خلال فترة مرضي.

وظهرت نتيجة الليسانس وأنا طريح الفراش فسعدت بنجاحي وانتهاء مرحلة الدراسة من حياتي رغم ضعفي ووهني، وشعرت رغم كل شيء بامتنان شديد (لقيود) الأهل ولرعايتهم واهتمامهم بأمري على الأصح حين أتيح لي بعض ذلك خلال فترة مرضي، ولولاه لكنت قد عجزت عن الالتزام بتعليمات العلاج والغذاء ولكنت قد أمضيت فترة المرض وحيداً في مسكني، كما شعرت بامتنان أكبر للأقدار التي ساقت إليَ خالي في هذه الزيارة غير المتوقعة، وله هو أيضاً لإصراره على أن يفرض عليّ (قيداً) من هذه القيود الحبيبة حين تمسك بنقلي لمسكنه.

أما سؤال الطبيب لي مستنكراً: كيف لم أتنبه إلى أن ما طرأ على حالتي الصحية من تغيرات كان يستدعي الاهتمام منذ اليوم الأول وليس بعد 10 أيام كما فعلت، فلم أستطع وقتها وأنا في سن العشرين أن أقدم له رداً مقنعاً، أما الآن وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من هذه القصة وبعد أن علمتني خبرة الأيام والسنين ما لم أكن أعرفه، فإني أستطيع أن أفسر لهذا الطبيب الآن لماذا لم أكتشف خطورة مرضي في الوقت المناسب ذلك أن الإنسان لا يرى نفسه إلا إذا نظرنا في المرأة.. ولأن الأهل والأحباء وشركاء الحياة الذين يعيش الإنسان بينهم هم مرآته التي يرى فيها نفسه، ويكتشف أية متغيرات قد تطرأ عليه، فيعرف من خلالهم إذا كان قد زاد وزنه أم نقص، وإذا كانت روحه قد تغيرت أم بقيت على حالها.. وإذا كان وجهه شاحباً اليوم أم يتفجر بدماء الصحة. أما هو فلو ترك لنفسه فلن يدرك ذلك إلا بعد وقت ربما تكون الأعراض قد تفاقمت خلالها كما حدث لي وقتها، فالأهل يا

صديقي (يهتمون)، ولهذا فهم (يلاحظون) و(ينزعجون).. وينبهون المرء إلى خطورة ما يطرأ عليه من أحوال إذا كان غافلاً عنها، ولقد كنت في ذلك الوقت أعيش بعيداً عن أهلي وسط بشر (ليس لي في زحامهم أحد)، كما يقول الشاعر، لهذا لم ينتبه أحد لمرضي وينبهني إليه.. أو لم يأبه لي أحد بمعنى أصح لأن أمري لم يكن يهم أحداً سواي، ولا لوم ولا عتاب على أحد فالأهل الذين كنا نشكو من قيودهم هم وحدهم الذين يقولون لنا قبل أن ننطق بها: سلامتك من الآه!

وليس من الحكمة ولا من العدل أن يتوقع المرء من الغرباء أن يقدموا له ما لا يقدر على أن يقدمه له إلا الأهل والأعزاء والأحباء.

ولقد شكونا ونحن في سن الصبا من قيود اهتمامهم بنا ومغالاتهم في الحرص علينا، وحلمنا بحياة الحرية الكاملة بغير قيودهم فعلمتنا تجربة السنين أننا إنما كنا في حقيقة الأمر نشكو الحب والحنان ونحلم بحياة الكلاب المشردة في الطرقات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثرثرة صيفية!

جاء الصيف.. واستسلم الذهن للخمول، فلا تتوقع مني حديثاً مفيداً ولا حتى (مفهوماً) حتى بداية الخريف! لاحظت مع تقدم العمر أن قدرتي على العمل الذهني الجاد تتراجع إلى أدنى مستوياتها في ذروة الصيف مع اشتداد الحر، في حين كان عنفوان الشباب عندي لا يفرق بين حر وبرد ولا بين صيف أو خريف، فسبحان من يغير ولا يتغير.. ولا مفر إذن من الاعتراف ببصمات السنين والإقتناع ولو بعد فوات الأوان بأهمية الاسترخاء في إجازة صيفية كافية لتجديد النشاط واستعادة الحيوية. من بداية الصيف وأنا أحاول إقناع صديقي الأديب أحمد بهجت (رهين المحبسين) الجديد بعد أبي العلاء المعري، بمصاحبتي في إجازة قصيرة إلى شاطئ الاسكندرية، فيشاركني الأمنية الغالية ثم يستمهلني أياماً قليلة حتى يجري جراحة فتاق صغيرة يحتاج إليها ويصاحبني بعدها في السفر، فلا هو يجري الجراحة التي لا تستغرق دقائق معدودة ويستريح من آلامه ولا هو يدعني للسفر يائساً منه ومن صحبته! أما صديقي الأديب يوسف عوف فلا يتبع إلا هواه ولا تؤثر فيه صداقة ولا عشرة سنين، فإن كان له ارتباط بعمل في الإسكندرية في الصيف سافر إليها وراح يتصل بي من هناك كل يوم طالباً اللحاق به لأن لبدني عليّ حقاً.. ولأننا نحتاج إلى الإجازة في الصيف لرفع المعنويات وتجديد النشاط، أما إن لم يكن له ارتباط هناك فلسوف تفشل معه كل الحيل لتذكيره (بفلسفته)، الصيفية الحكيمة هذه وسوف تتوالى اعتذاراته بشتى الأعذار! فمن لي بأصدقاء يستجيبون لدواعي الصداقة والحكمة أكثر مما يستجيبون لدواعي الكسل وقلة الحركة والالتصاق بالمكان حتى ولو اشتكوا منه!

صديقي (رهين المحبسين)، أحمد بهجت.. ومحبسه الأول شقته بمصر الجديدة التي لا يكاد يغادرها، ومحبسه الثاني غرفة مكتبه بها والتي يمضي بها أكثر من نصف عمره، يكتفي وهو السباح القديم من أحلام السباحة السابقة في مياه البحر، بارتداء الشورت أو المايوه في البيت من مطلع الصيف حتى مقدم الخريف، فيذكرني ببطل مسرحية البطة البرية، للكاتب النرويجي هنريك إبسن الذي كان يحلم بأن يكون صياداً عظيماً يصيد الوحوش والطيور البرية في الغابة، فانتهى به الحال لأن يربي بعض البط في غرفة من غرف بيته ثم يدخل عليها حاملاً بندقيته ويصيدها ويخرج منتعشاً بإحساس الصياد الكبير! تماماً كما يسير أحمد بهجت بالشورت في أنحاء شقته منتشياً بإحساس السباح الخطير.. ولا بحر ولا سباحة ولا رمال!

اختتمت موسمي الثقافي هذا الصيف بقراءة كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل الخطير عن (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) وشعرت بعد انتهائي منه أنني لم أعد صالحاً للقراءة الجادة المجهدة للذهن قبل أولى نسمات الخريف في بداية سبتمبر، أما متعتي الذهنية خلال الأسابيع الباقية فلسوف أجدها غالباً في إعادة قراءة بعض ما سبق لي أن قرأته وأحببته من أعمال أدبية وتاريخية كما أفعل دائماً في هذا الوقت من كل سنة!

اعتاد الأستاذ هيكل – فضلا منه وكرما - أن يهديني كل كتبه الجديدة كما يفعل مع معظم أصدقائه وتلاميذه وزملائه السابقين، لكنه مازال يصر على اعتباري (شاباً) بعد كل هذه السنين، فيكتب لي كلمات الإهداء بخطه الدقيق المميز هكذا: إلى الصديق فلان.. إلى جيل الشباب! ثم يوقع بإمضائه الشهير! فابتسم كلما قرأت هذا الإهداء (المعبر)، وأتحسس الشعرات البيضاء في رأسي وأقول لنفسي.. يا إلهي.. لم يتغير (الأستاذ) أبداً بعد كل هذه السنين ولم تتغير نظرته لنا نحن جيل المحررين (الشبان)، الذين فتح لهم أبواب العمل في الأهرام منذ أكثر من ثلاثين سنة، فكانوا وقتها (جيل الشباب) بين شيوخ الأهرام ومحرريه القدامى، **فماذا عساه أن يقول لو رآنا بين هذه الأمواج المتلاطمة من شباب الأهرام الحاليين وهم يعتبروننا الآن جيل الشيوخ من أبناء المدرسة القديمة! ولكن لا عجب في ذلك ولا غرابة فمياه النهر تتجدد باستمرار ومن كان (جديداً) و (مجدداً) في زمانه قد يصبح الآن (محافظاً) و (تقليدياً) في أنظار من يأتون بعده وهذه هي سنة الحياة التي يضطرد تقدمها للأمام دائماً في اتجاه مثلها الأعلى من خلال تفاعل القديم مع الجديد بل ومن خلال صراعهما أيضاً في بعض الأحيان.**

حين يستسلم الذهن للخمول.. أجد زادي الفكري في اجترار بعض قراءاتي القديمة، تماماً كما تفعل الفرق المسرحية العتيدة حين تعيد تقديم بعض عروضها السابقة كل صيف وتسمى عروضها هذه (بالريبريتوار) ومن (ريبريتوار) الصيف عندي هذه الأيام اخترت لك هذه الفقرات المتناثرة التي رجعت إليها في ليالي الصيف الحارة وأعدت قراءتها وتوقفت أمامها من جديد متأملاً ومتفكراً.

في مذكراتها التي وصفتها بأنها (ترنيمة لبهجة الحياة)، قالت أشهر مؤلفة للقصص البوليسية في التاريخ (أجاثا كريستي): (كتابة المذكرات الشخصية تتطلب أن يسجل الإنسان كل شيء هام في حياته وأن يذكر تواريخ وأماكن محددة، لكني لم أفعل ذلك حين كتبت مذكراتي فلقد أردت أن أغمس قلمي في مداد بهيج وأن أخرج منه بحفنة من الذكريات الحلوة فتذكرت فقط ما أردت أن أتذكره ونسيت ما أردت أن أنساه، ومن أعظم أشكال حسن الحظ في الحياة أن تكون لك طفولة سعيدة وقد كان لي هذا الحظ العظيم، فنشأت في بيت سعيد وحين أعود إلى الوراء أجد أن ذلك يرجع أساساً إلى شخصية أبي الذي لم أدرك للأسف إلا متأخرة كم كان رجلاً محبوباً من أصدقائه وكل من يتعامل معهم).

أما على الجانب الآخر فلقد توقفت أمام فقرة أخرى من مذكراتها تقول فيها (في كل أسرة هناك دائماً عضو يكون عادة هو مصدر المتاعب والقلق فيها.. وبالنسبة لأسرتي فقد كان هذا العضو هو شقيقي تومي، الذي ظل حتى آخر يوم من عمره مصدراً (للصداع وسببا للقلق والعناء بالنسبة لنا)!

يا إلهي كنت أظنه اكتشافاً شخصياً لي حين قلت ذات مرة إن بين أفراد كل أسرة غالباً عضوا هو (قدرها) في الحياة.. أو (فاسوختها) الذي تتحمل دائماً وبلا ذنب جنته نتائج أفعاله وتصرفاته واختياراته الخاطئة في الحياة.. ويظل هو طوال رحلته مع الدنيا سبباً لمعاناتها.. والفرع الماثل من شجرتها التي لا مفر أمامها من أن تواصل باستمرار محاولة صلبة.. وإقامة ظهره بسند منها، لأنه

كفروع شجرة اللبلاب تحتاج دائما إلى ما تستند إليه! فإذا بالمؤلفة الإنجليزية الشهيرة تؤكد في مذكراتها الشخصية أنه لا جديد تحت الشمس ولا نهاية لأسرار النفس الإنسانية الغامضة!

من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه استرجع دائماً ما رواه عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز حين تولى الخلافة فوفد إليه الشعراء كما كانوا يفدون إلى الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه ينتظرون الإذن لهم بالدخول عليه لينشدوه أشعارهم ومدائحهم وينالوا عطاءه، فلم يأذن لهم عمر بن عبد العزيز حتى قدم عليه عون ابن مسعود وتشفع لديه في الإذن لهم بالإنشاد بين يديه قائلاً: إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية، وسنانهم مسنونة، وقد مدح الرسول من بعض الشعراء وأعطاهم، فسأله عمن يقفون ببابه، فذكرهم له واحداً بعد الآخر فكان كلما ذكر له أحدهم: قال عمر: قبحه الله.. أليس هو القائل ثم يروي بعض شعره في المجون أو الغزل المفضوح، ويرفض استقباله، إلى أن ذكر له عون اسم جرير بن اليربوعي، فلم يأخذ عليه مجوناً في غزله وأذن له وبادره حين مثل بين يديه بالقول: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً! وأنشده جرير بعض المديح واستمع إليه عمر بن عبد العزيز صامتاً ثم قال له يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة (درهم غالباً فمائة أخذها عبد الله (ابنه) ومائة أخذتها أم عبد الله (زوجته).. يا غلام اعطه المائة الباقية!

فقال جرير الذي اعتاد العطايا السخية من قبل: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلى ثم خرج إلى زملائه من الشعراء وسألوه: ما وراءك فأجاب: ما يسوؤكم! فلقد خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض.

ولا تعليق من عندي على هذه القصة، سوى أنها سطر جديد في قصة هذا الخليفة التقي الورع الذي قالت عنه فاطمة زوجته حين سئلت بعد وفاته عن أحواله وعبادته فقالت، والله ما كان أكثركم صلاة ولا أطولكم صياماً.. لكني ما رأيت عبداً أخوف الله منه .

رضوان الله وسلامه عليك يا سيدي يا أمير المؤمنين.

من كتاب عن قصة حياة (إبراهام لينكولن)، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية ومحرر العبيد (1809 - 1865)، عمل لنكولن محامياً مع شريك له في مكتب واحد بمدينة سبر نجفيلد، ثم بدأ يتطلع لأداء دور سياسي فرشح نفسه لانتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية (الينوي)، لكنه خسر الانتخابات أمام المرشح المنافس دوجلاس ب 46 صوتاً مقابل 54 صوتاً لمنافسه، ويوم ظهور النتيجة عاد إلى بيته ماشياً في الطرق المظلمة وكان الطريق حجرياً زلقاً فزلقت رجله وكاد يقع بجسمه الضخم على الأرض إلا أنه تمالك نفسه وشد جسمه العملاق وهو يقول لنفسه بصوت مسموع: إنها زلة وليست سقوطاً!

مشيرا بذلك إلى تعرضه للسقوط على الأرض وإلى هزيمته أيضا أمام منافسه في الانتخابات، وحققت الأيام نبوءته، فلقد ذاع اسمه في البلاد بسبب مناظراته مع منافسه في هذه الانتخابات التي خسرها وبدأ كثيرون يطالبونه بالترشيح للرئاسة، وفاز بترشيح الحزب الجمهوري له لانتخابات الرئاسة وخاض المعركة بالفعل وكان خصمه الأساسي فيها هو دوجلاس نفسه الذي هزمه في انتخابات الشيوخ، لكنه انتصر عليه هذه المرة. وتحققت النبوءة بأنها كانت (زلة) ولم تكن سقوطاً ولا فشلاً نهائياً.

وذهب (لنكولن) إلى مكتب المحاماة ليجمع أوراقه استعداداً للمرحلة الجديدة من حياته فراح يتأمل شريكه في المكتب للحظات ثم سأله: كم عاماً عملنا فيها معاً؟ فأجابه: 16 عاماً.

فقال له لينكولن: ولم تجر بيننا خلالها كلمة مشاحنة واحدة؟ فأجابه شريكه الأمين: بلى يا سيدي.. ولا كلمة واحدة! فطلب منه لينكولن ألا يرفع اللافتة التي تحمل اسمه معه عن مكتب المحاماة؛ لأنه سيرجع للعمل معه من جديد حين تنتهي فترة رئاسته لأمريكا لكن النبوءة لم تتحقق هذه المرة وأغتيل (لينكولن) وهو رئيس للولايات المتحدة لفترة ثانية عام 1865.

فترى كم إنساناً يستطيع أن يقول الآن: إنه قد شارك أحدا في عمل أو حياة أو حتى صداقة فلم تجر بينهما كلمة مشاحنة واحدة خلال 16 عاماً؟

من موسوعة تاريخ العالم، كان بطرس الأكبر قيصر روسيا (1672 - 1725) حاكماً عبقرياً حكم بلاده لمدة 43 سنة كاملة وزار أوروبا وهو قيصر روسيا متخفياً تحت اسم مستعار وعمل نجاراً بسيطاً في ورشة لصناعة السفن ليدرس الصناعة، ورجع إلى بلاده معجباً بالحضارة الأوربية وعازماً على إلحاق بلاده بأوروبا لتكون قطعة منها بدلاً من عزلتها الآسيوية فبنى المدن العظيمة على الطريقة الأوربية وأنشأ الصناعات وفتح المدارس وحث على التعليم، لكنه في اندفاعه المحموم لتقليد أوروبا والأوربيين وقع في المحظور وأصدر قراراً مضحكاً يحرم على الروس إطلاق لحاهم وكانوا جميعا يفضلون ذلك، ونص القرار العجيب على أن يحصل من يريد إطلاق لحيته على ترخيص بذلك من السلطات المختصة مقابل أن يدفع ضريبة سنوية محددة، فكانت ضريبة اللحية هذه ومازالت من أعجب أنواع الضرائب والرسوم في العصر الحديث! ودليلاً جديداً على أن المغالاة في التقليد قد تمسخ الشخصية القومية لأي مجتمع بغير أن تحقق التقدم.

في كتاب الوجه الآخر للدبلوماسية يروي السفير فتحي الجويلي أن دبلوماسياً أمريكياً كانت بينهما دائماً مساجلات ودية يفاخر كل منهما فيها بقومه وحضارته، فجاءه الدبلوماسي الأمريكي ذات مرة وقال له وهو سعيد: إن إحدى الولايات الأمريكية قد أصدرت مؤخراً قراراً يمنع زواج المطلقة برجل آخر قبل مرور ثلاثة شهور على طلاقها ثم سأله منتشياً: هل عندكم قانون متحضر كهذا القانون؟ فضحك السفير الجويلي وقال له إن هذا القانون (المتحضر)، الذي أصدرته تلك

الولاية مند شهور قليلة يعمل به المسلمون في أنحاء الأرض الأربعة منذ 14 قرنا قد ورد في القرآن تحرياً لحمل المطلقة وتجنبا لاختلاط الأنساب!

وعجبي!

من مذكرات شارلي شابلن أن (وليم هيرست) ملك الصحافة الأمريكية في العشرينات والثلاثينيات كان يهاجم في صحفه رجال (وول ستريت) شارع المال والأعمال، فالتقى رجل الأعمال (راسل سدج) بوالدة وليم هيرست وكانت مغرمة بابنها ويتمتع دائماً بتأييدها فقال لها سدج:

- إذا استمر ابنك يهاجم (وول ستريت)، فإن صحيفته ستخسر مليون دولار كل عام.

فأجابته الأم بهدوء: حسنا، بهذا المعدل يستطيع ابني أن يستمر في المهنة لمدة 80 عاما!

وما أحلى أن يؤمن الآباء والأمهات بأبنائهم، وأن يتمتع الأبناء بتأييدهم ومساندتهم الأدبية والمعنوية لهم طوال الحياة.

ومن رواية السيمفونية الريفية للأديب الفرنسي أندريه جيد، تأمل القس العاشق عشقاً عفيفاً صامتاً للفتاة العمياء الجميلة (جرترود) السماء في ليلة هادئة وقال:

(أمن أجلنا يارب جعلت الليل شديد العمق.. والهواء دافئا ونور القمر يتهادى إلى من النافذة فيغمرني بفيض من السحر.. رب إن كان للحب حداً فهو من صنع البشر وليس من صنعك أنت ومهما يظهر حبي آثماً في أعين الناس فألهمني الإيمان بأنه عندك طاهر نقي)!

ولا تعليق من عندي على هذه الكلمات الرقيقة الحانية! أما من طبقات الشعراني فإني أختتم هذه الثرثرة الصيفية بهذه المناجاه الفريدة من نوعها التي رواها عن العابدة القانتة عائشة بنت جعفر الصادق سادس أئمة الشيعة الإمامية، وقد أثر عنها أنها ناجت ربها ذات مرة فقالت: وعزتك وجلالك لئن عذبتني لآخذن توحيدي بيدي وأدور به على أهل النار أقول لهم: وحّدته.. فعذبني!

فأي وجد أوحى لهذه العابدة القانتة بهذه المناجاة الفريدة من نوعها وأي (حال) صوفية سامية سمحت لها بأن تدل على ربها.. بأنها سوف تحتمي بتوحيدها له من كل عذاب فإن حدث ما تخشاه فلن تسكت!

وكل سنة وأنت (شباب) العقل والروح والقدرة على احتمال حر الصيف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مطرب العواصف!

لاأدري لماذا أتذكره الآن وقد مضت عشرون عاماً على الأقل منذ رأيته آخر مرة؟

هل لأنني أرى (أشباهاً) كثيرين له في الحياة يكررون نفس (الخطأ المشترك)، وإن كانوا لا يدفعون ما دفعه هو من ثمن باهظ لخطئه؟

أما الخطأ المشترك فهو أن يعمى الإنسان عن قدراته الحقيقية ويطلب لنفسه ما لا ترشحها له إمكانياته، مدفوعاً في ذلك بتطلع الإنسان المحموم لأن ينال ما ناله غيره من حظوظ في الحياة بغير أن يتوقف أحياناً ليسأل نفسه: وهل تسمح لي قدراتي وملكاتي حقاً بما سمحت به الحياة لهؤلاء الفائزين؟ وهل عانيت أنا بعض ما عانوه قبل أن يحققوا نجاحهم لكي أطلب لنفسي جوائز الحياة لهم؟ وهل تكفي (الرغبة) العارمة وحدها لنيل الأشياء بغير أن تساندها القدرات والإمكانيات والظروف المواتية التي تسمح ببلوغ الأهداف؟

إن مأساة البعض تبدأ غالباً حين يتطلع الإنسان لحظوظ الآخرين، فيسأل نفسه هذا السؤال المخادع:

- وماذا (يزيد)، عني فلان لكي ينال من الحياة ما لا أناله أنا؟ ولماذا لا أطلب لنفسي ما طلبه هو وحصل عليه وتمتع به؟ فيتغافل بذلك عن حقائق جوهرية هامة هي أن (الغيرة) من حظوظ الآخرين ليست مبرراً كافياً أبداً لنيل مثل حظوظهم، ولا الرغبة الضارية أيضاً في الحصول عليها كافية وحدها لنيلها فمطالبنا من الحياة، كما يقول لنا المفكر الفرنسي مونتسكيو - عادة كثيرة، ويصعب تحقيقها كلها لأن ذلك لا يتوقف على إرادتنا وحدنا وإنما أيضاً على أشخاص آخرين وظروف قد تسمح بذلك أو لا تسمح، تماماً كما يفعل الإنسان حين يرغب في الحصول على بدلة جديدة فلا تكفي رغبته وحدها في تحقيق ذلك وإنما لابد أيضاً من أن تتوفر لديه الإمكانيات التي تسمح له بشراء القماش الفاخر المناسب، وأن يكون محل القماش مفتوحاً ليشتريه منه والقماش نفسه متوفراً فيه، وبعد ذلك كله وقبله فلابد أيضاً من موافقة (حائك الملابس)، على تفصيل هذا القماش وتحويله إلى بدله أنيقة يسعد بها من يرتديها.. وكل هذه الظروف وخاصة موافقة (حائك الملابس)، لا تخضع لسيطرة الإنسان ولا لإرادته ولأن البعض يطلبون لأنفسهم الكثير أحياناً بغير الحصول على موافقة حائك الملابس التي ترمز هنا للقدرة الإلهية والإرادة العليا التي تحكم هذا الكون، فإن المأساة تتكرر من جيل إلى جيل بلا نهاية.

ولم يكن صديقي (مطرب العواصف)، بالصاد وليس بالطاء - سوى واحد من ضحايا هذه المأساة الإنسانية الأزلية.

فلقد نظر في المرأة ذات يوم منذ ثلاثين عاماً فوجد نفسه قريب الشبه من مطرب جيلنا عبد الحليم حافظ.. وتلفت حوله ورأى العندليب الأسمر يحلق في سماء الشهرة والنجاح والثراء.. وقلوب الفتيات والشباب تخفق له في كل

مكان، فسأل نفسه: وماذا ينقصني لكي أكون فارس القلوب والأسماع فاستمتع بالشهرة والثراء وحب الملايين (مثله)؟

إنني أحفظ أغانيه.. وصوتي لا بأس به رغم حقد الحاقدين الذين يتغامزون عليّ كلما غنيت أغانيه أمامهم، كما أنني عليل الجسم ومريض المعدة من أثر النشأة البائسة في الريف مثله فلماذا تفرق إذن بيننا الحظوظ؟

وبغير استئذان (حائك الملابس)، والتأكد من القدرات والمواهب اتخذ هذا الشاب البائس قراراً مصيرياً بالاستقالة من عمله كمدرس بالمدارس الابتدائية بقريته، وهاجر إلى الإسكندرية ليبدأ رحلة الصعود إلى النجاح والشهرة، متجاوزاً عن توسلات أمه وإخوته إليه ألا يحرمهم من مورد الأسرة الوحيد بعد أن عانت ما عانت في سبيل تعليمه، وغزا الشاب الحالم المدينة الكبيرة باحثاً عن حظه فنزل ضيفاً على بعض أبناء قريته الذين يدرسون بجامعة الإسكندرية، وليس في يده من سلاح سوى بضعة جنيهات وبدلة سوداء اشتراها بمعظم مدخراته ليبدو في مظهر لا يختلف عن مظهر العندليب، ثم صفف شعره على طريقة عبد الحليم حافظ وتوجه إلى إذاعة الإسكندرية طالباً (اكتشافه)، وتقديمه للجماهير..

وبعد معاناة طويلة انعقدت لجنة الاستماع بالإذاعة واستمعت إليه وهو يغني أغاني عبد الحليم ويقلد حركاته وإشاراته، فانفجر أعضاء اللجنة في الضحك ونصحوا الشاب بأن يرجع إلى مهنة التدريس لأن قرب الشبه بينه وبين عبد الحليم حافظ لا يكفي لأن يصنع منه مطرباً.

وغادر الشاب مبنى الإذاعة حزيناً مكتئباً وبدلاً من أن يتبين وجه الحكمة فيما نصحه به أعضاء لجنة الاستماع (تذكر)، أن عبد الحليم حافظ نفسه قد واجه الفشل في بداية حياته ولم يثن ذلك عزمه فقرر هو أيضاً ألا ينهزم أمام حقد هؤلاء الحاقدين من أ أعداء النجاح وأن يصنع نجاحه خارج مبنى الإذاعة ليفرض نفسه عليها وعلى إذاعة القاهرة نفسها فيما بعد، وتوجه إلى مسارح المنوعات التي كانت منتشرة وقتها بكورنيش الإسكندرية وعرض نفسه على أصحابها.. وامتحنه أكثر من واحد منهم ثم رفضه ساخراً منه أو مشفقاً، إلى أن لمعت في ذهن أحدهم فجأة فكرة أن يستفيد من شبه هذا الشاب البائس بعبد الحليم حافظ ويقدمه في مسرحه بلا أجر على سبيل التجربة.

وجاءت لحظة المواجهة الأولى مع جمهور هذا المسرح في المساء، وقدمه المذيع بأنه العندليب الأسمر الجديد، وصعد المطرب الشاب إلى المسرح فلاحظ الحاضرون الشبه الواضح بينه وبين مطربهم المحبوب وترقبوا أن يكون صوته أيضا شبيهاً به، وعزفت الفرقة الموسيقية مقدمة أغنية (نار يا حبيبي نار)، ثم بدأ المطرب الجديد الغناء فإذا بصوته يتسلخ وينشرخ ويتحول إلى عواء يثير الفزع والضحك والرثاء معا وتلفت الحاضرون حولهم يتساءلون عن تفسير لهذه الحكاية فلم يجدوا لها تفسيرا وراقبوا المطرب الشاب، وهو يغمض عينيه ويقلد حركات عبد الحليم حافظ وإشاراته فلم يلبث بعضهم أن وجد في المقارنة بين الأصل والصورة ما يثير الضحك والسخرية.. فبدأوا (يستمتعون)

بالفقرة الغنائية. ويضحكون من قلوبهم ويهللون للمطرب الجديد ويطلبون منه إعادة المقاطع والأغنيات وقد سرى بينهم تيار غريب من الابتهاج وزادهم استمتاعاً بالفقرة أن شاهدوا أعضاء الفرقة الموسيقية التي تصاحب الشاب أنفسهم مستغرقين في الضحك ويتحمسون لمواصلة العزف وراء (المطرب) من باب السخرية وكل ذلك والشاب البائس لا يشعر بسخرية الساخرين، أو يشعر بها ويفسرها كعادته فيما لا يريد الاقتناع به بأنها من أثر حقد الحاقدين على موهبته الصاعدة.

وانتهت الفقرة الغنائية بعد أن حققت أثرها البهيج على الحاضرين وأدرك صاحب المسرح حقيقة الموقف من الوهلة الأولى فقرر السماح له بالاستمرار في العمل كل ليلة ولكن ليس كفقرة غنائية عاطفية، كما يتوهم الشاب، وإنما كفقرة فكاهية تمتع الجمهور وتثير ضحكهم.

وفي الليالي التالية تكررت المفارقة المؤسفة بين غناء المطرب الشاب العاطفي الحزين وبين ضحك الجمهور وأعضاء الفرقة الموسيقية وابتهاجهم الغريب طوال الغناء، إلى أن أصبحت هذه الفقرة أنجح فقرات هذا المسرح وأكثرها إثارة لاهتمام الجمهور ومتابعته، والشاب غارق في أحلامه وأوهامه ويتصور أن هذا الإقبال عليه هو بشير النجاح والشهرة وتحقيق الأمال.

صحيح أن صاحب المسرح لا يعطيه سوى جنيهين فقط كل ليلة ينفق أكثرهما على كي البدلة والقميص وتلميع الحذاء وحلاقة ذقته وتصفيف شعره عند الكوافير كل مساء على طريقة عبد الحليم حافظ، فلا يبقى له بعد ذلك ما يقيم أوده أو يسمح له باستئجار غرفة يقيم بها لكن لا بأس بذلك فهكذا عانى أيضاً عبد الحليم في بدايته ثم انهالت عليه بعد ذلك جوائز النجاح.

لكن الفقرة الغنائية تطورت بعد ذلك تطوراً مؤسفاً ساهمت فيه شخصية هذا الشاب البائس نفسه فلأنه يتوهم في نفسه مطرباً عاطفياً خطيراً، فلقد كان ينأى بنفسه عن مخالطة أعضاء الفرقة الموسيقية والعاملين بالمسرح، كما ينبغي لفنان موعود بالمجد مثله، فكرهه هؤلاء بدلاً من أن يتعاطفوا معه وكرهوا (كبرياءه) الفني البائس وترفعه عن الاقتراب منهم وتحولت كراهيتهم له مع مرور الأيام إلى روح عدائية قاسية لا تراعي مشاعره ولا يردعها صاحب المسرح الذي أصبح يستمتع أكثر من غيره بما فعلوه مع مطربه الموهوم. وفي كل ليلة راح العاملون في المسرح يتفننون في السخرية من المطرب والإساءة إليه فلا يجدون منه سوى نظرة الاستعلاء والصمت المتكبر والازدراء وقد بدأت موجة العدائية ضده حين كان يغني ذات ليلة أغنية نار يا حبيبي نار فهرول إلى المسرح أحد العاملين بكوب من الماء وألقاه على المطرب بدعوى إخماد النار التي شبت فيه فجأة والجمهور وأعضاء الفرقة الموسيقية يتمايلون من الضحك والنشوة والابتهاج.

ورغم ذلك فقد واصل المطرب نفس الأغنية بلا احتجاج وأغمض عينيه من جديد.. وجعر: نار.. نار.. نار فإذا بأحد العاملين يهرول إليه بطفاية الحريق ويفتحها عليه

فوق المسرح فتغطيه الرغاوي من كل جانب ويتوقف الموسيقيون عن العزف من شدة الضحك ويغرق الجميع في نوبة من الضحك القاتل.

ولم ينقطع المطرب الشاب رغم كل ذلك عن الغناء في هذا المسرح بعد هذه الليلة ولم يلتقط الإشارة الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان بأنه ليس مطرباً ولن يكون كذلك ذات يوم، وواصل تحديه لظروفه وإمكانياته بلا نهاية فتحولت فقرته الغنائية في الليالي التالية إلى تراجيديا مبكية ومضحكة في الوقت نفسه، فبالإضافة إلى إخماد (حريقه) كل ليلة بفتح الطفاية عليه وإلقاء الماء، فقد كان لا يغني من أغاني عبد الحليم إلا الأغاني الحزينة المغرقة في الحزن مؤمناً بأن المطرب (العاطفي) لا ينبغي له أن يغني إلا مثل هذه الأغاني، وضاق بذلك أعضاء الفرقة الموسيقية وراقبوه بملل ذات ليلة وهو يغني أغنية في يوم في شهر في سنة تهدى الجراح وتنام، ثم طرأت لأحدهم فكرة مفاجئة فهمس بها لزملائه وفاجأوا المطرب وهو منهمك في الغناء الحزين بعزف موسيقى أغنية (تعاليلي يا بطة)، وصفق الجمهور مع الإيقاع والضحك يقتلهم والمطرب البائس ينظر للفرقة في حسرة وينتظر حتى يكف أعضاؤها عن العبث ويعودوا لعزف موسيقى الأغنية الحزينة فيرجعوا إليها ويستسلم هو للغناء والتأوهات فيقطعون عليه اندماجه مرة أخرى بنفس الموسيقى الهزلية!

واحتج المطرب لدى صاحب المسرح فلم يحفل باحتجاجه، وأصبح تقليداً متكرراً بعد ذلك كل ليلة أن يغني المطرب في واد وتعزف الفرقة في واد آخر ما يحلو لها من موسيقى الأغاني الضاحكة.

ومع تكرار القصة كل ليلة بنفس عبثها وتفاصيلها فقدت الفقرة المبتكرة جدتها وبهجتها، فزهد فيها صاحب المسرح بعد حين وصرف المطرب البائس طالباً منه البحث عن عمل آخر.

وخلال هذه الفترة العجيبة من حياته التقيت به في مسكن بعض أصدقاء الطفولة الذين يعملون بالإسكندرية خلال زياراتي لهم وناقشته طويلاً فيما تردت إليه أحواله بعد أن هجر مهنته الأصلية وقريته، وحاولت إقناعه بالعودة إلى أسرته وقريته وعمله كمدرس وأن ينفس عن هوايته بالغناء في الحفلات المدرسية مؤكداً له أنه إذا كان صاحب موهبة حقيقية، فلسوف يسعى إليه حظه ذات يوم ولو كان في آخر بلاد الدنيا، ففوجئت به ينظر إليّ في ألم ويقول لي متحسراً: حتى أنت يا أستاذ تنصحني بما ينصحني به الحاقدون والجهلاء بدلاً من أن تكتب عني وتأخذ بيدي! فأدركت أن الحال قد أصبحت مستعصية على العلاج.. وأنه لا أمل في الإصلاح إلا بعد أن تلقنه الحياة دروسها القاسية بمطرقتها الثقيلة وعزفت عن محاولة نصحه، وعلمت فيما بعد أن أحواله قد واصلت التدهور إلى مالا نهاية فضاق بضيافته الطويلة مضيفوه من أبناء بلدته وأصبح يتنقل بين بيوت المعارف القليلين فيقضي ليلة هنا وليلة هناك ضيفاً غير مرغوب فيه وقد يعز عليه المأوى أحياناً فيمضي ليلته في محطة السكة الحديد (نائماً ببدلة السهرة) الرثة بين المتسولين وجامعي أعقاب السجائر.

ثم انقطعت عني أخباره بعد ذلك ونسيته في زحام الحياة، فإذا بي التقى به بعد خمس سنوات بالصدفة على كورنيش الإسكندرية يرتدي نفس البدلة الرثة.. ونفس الكرافت التي يثبتها بدبوس رخيص، وربما نفس القميص المتهالك أيضاً الذي يضع فيه أزراراً معدنية قديمة وقد ازداد جسمه نحولاً وبدت عليه آثار سوء التغذية، ورغم ذلك فهو يمشي بنفس الطريقة المتعالية.. ويضع منديلاً في جيب الجاكت، ويتحدث بنفس الصوت العاطفي الهامس فرأيت فيه تطبيقاً عملياً لهذا التعبير الفريد الذي صكه الأديب الفرنسي أناتول فرانس حين وصف حال شخص مثله فقال عنه إنه أنيق (أناقة قذرة) وسألته عن أحواله فقال لي إنه مازال يبحث عن النجاح.

وسألته كيف يدبر أمور حياته بعد كل هذه السنوات، فأجابني في خجل أن اضطر تحت ضغط الظروف القاهرة إلى تقديم بعض (التنازل) عن كبريائه الفنى فقبل أن يكسب رزقه بالعمل كمدرس خصوصي للحساب والهندسة لعدد من أبناء وأقارب بعض معارفه في الإسكندرية لكنه يعتبر هذه المرحلة من حياته (محطة مؤقتة) لن يلبث أن يغادرها في أقرب وقت.

وودعته على الشاطئ وانصرف كل منا إلى طريق.

ولست أدري ماذا صنعت به الدنيا بعد ذلك فإذا كنت أتذكره الآن من حين لآخر فلأنني ألتقي أحياناً بأشخاص يطلبون لأنفسهم حظوظ الآخرين بغير أن يتوافر لهم قدراتهم ومواهبهم، بل ولا ظروفهم التي سمحت لهم بتحقيق ما حققوه، ورغم ذلك فهم ينفسون على هؤلاء الآخرين حظوظهم من الدنيا ولا يلومون أنفسهم أبداً على تطلعهم المحموم إلى ما لا تسمح لهم به ظروفهم ولا على رغبتهم المتعجلة في نيل جوائز الحياة بغير أن يقدموا لها قرابين الكفاح والعطاء والعرق لسنوات وسنوات ولا على أنهم لا يتفهمون أبداً أن (الرغبة)، وحدها لا تكفي وأنه لابد دائماً من موافقة حائك الملابس، لكي يحصل الإنسان على حلة جديدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عصفور .. كل إنسان!

هل تذكر حكاية ذلك الفيلم العربي القديم عن الزوجة الحالمة التي كانت تستسلم كثيراً لأحلام اليقظة فتتمثل نفسها في شخصيات بطلات الأفلام التي تشاهدها، وتبدأ في التصرف بنفس طريقتها فتسبب لزوجها مشاكل محرجة وطريفة؟

يبدو والله أعلم أنه قد حدث لي شيء شبيه بذلك لكني سأؤجل الحديث عنه إلى أن أروي لك أولاً قصة (الظروف) المحيطة به!

منذ فترة قصيرة قرأت رواية (هموم شخصية) للأديب الياباني (أوى كنزابورو) الحاصل على جائزة نوبل للأدب عام 1994 فاجتذبتني منذ سطورها الأولى.. واستغرقت في قراءتها بلهفة وعايشت شخصيات أبطالها.. وتعاطفت مع بعضهم و (صادقتهم) حتى كدت أتخيل ملامح وجوههم.

والرواية تحكي قصة شاب عمره 27 عاماً اسمه (بيرد)، أي طائر أو عصفور، كما يناديه الجميع. وهو شاب قليل الأصدقاء وحالم وكلما واجهته مشكلة كبيرة من مشاكل الحياة هرب من مواجهتها بالانغماس في شرب الخمر فأضاعت الخمر طموحه وتوقف عن دراساته العليا وسعى له صهره الأستاذ الجامعي حتى عينه مدرساً في مدرسة لتقوية الطلاب الراسبين في المدارس الحكومية. وقد تزوج عصفور منذ عامين لكن أحلاماً غريبة تراوده وتغريه بأن يترك كل شيء وراءه ويفر من قفص الزوجية والحياة الرتيبة فيرحل إلى أفريقيا ويرتاد أحراشها وغاباتها ويعمل مرشداً للسياح الأجانب الباحثين عن المغامرة والإثارة في القارة السوداء. ويسيطر على خياله حلم أفريقيا فيشتري خرائطها ويروح يدقق النظر فيها بالساعات، ويدخر من مرتبه مبلغاً يبدأ به مغامرته الكبرى حين يقوى على مغادرة القفص.

والرواية تبدأ وهو يعيش وحيداً في مسكنه مع خرائطه وأحلامه، فزوجته في المستشفى تضع مولودها الأول.. وهو لا يعرف هل يسعد بهذا المولود الجديد حين يجيء أم يضيق به؛ لأنه سيصعب من حلم الهروب؟!

ويجيئه رنين التليفون بالخبر المرتقب، ويسرع إلى المستشفى فيقابله الطبيب بوجوم.. ويعرف منه أن زوجته على خير ما يرام.. لكن المولود الجديد ليس كذلك.. فهو (مسخ) مشوّه يخرج من رأسه نتوء ضخم بحجم الرأس الأصلية وهيئته ليست بشرية، ولابد من نقله على الفور إلى المستشفى الجامعي الكبير لإجراء جراحة خطيرة له لفصل هذا النتوء الضخم عن رأسه!

ويصاحب عصفور سيارة الإسعاف التي تنقل طفله إلى المستشفى الكبير ويبلغه الأطباء بأنه لابد من الانتظار لبضعة أيام تتم خلالها تغذية الطفل وتقويته حتى يتحمل عناء الجراحة، ويصارحونه بأن احتمالات النجاح ضعيفة.. وبأنه قد ينمو. إذا نجا من الموت - طفلاً غير طبيعي وربما ليس أكثر من (نبات بشري)، لا يعقل ولا يحس!

ويكتئب عصفور لما سمع.. لكنه يعود إلى بيته فيخرج المبلغ الذي ادخره لتحقيق حلم أفريقيا ويودعه خزينة المستشفى كتأمين لنفقات الجراحة. ويزور صهره ليبلغه بالحقيقة القاسية فيستشعر الرجل أزمته النفسية ويهديه زجاجة خمر يتصور أنه في أشد الأوقات احتياجاً لها. ويسأل عصفور نفسه بعد مغادرة صهره: أين تذهب الآن؟.. ومن يشاركه هذه الزجاجة وهو بلا صداقات حميمة تقريباً؟.. فيتذكر أخيراً زميلته السابقة في الجامعة وصديقته في إحدى المراحل هيميكو، إنها أنسب إنسان يستطيع أن يشاركه أوقاته في هذه الظروف الكئيبة.. فهي أرملة شابة انتحر زوجها بعد عام واحد من الزواج، وتعرضت لمحنة عصبية أليمة وأشفق عليها والد زوجها الراحل وتكفل بنفقات بيتها وحياتها وفاء منه لابنه، فعاشت حياة بوهيمية غريبة تنام في النهار وتخرج في الليل فتقضي الساعات تقود سيارتها بسرعة جنونية بلا هدف، وتقيم علاقات عابرة مع من تشاء، وتوجه عصفور إلى بيتها وشاركها زجاجة الخمر وشرب أكثرها.

وأمضى الليل عندها، وفي الصباح الباكر صحا من نومه على تقلصات رهيبة في معدته وغثيان خانق يقتله فأسرع إلى الحمام وعوى مفرغاً معدته، ثم غادر بيت زميلته القديمة إلى مدرسته وهو مازال يشعر بالألم والإعباء، وألقى درسه على تلاميذه وهو يقاوم الغثيان.. حتى اشتد عليه فانحنى وراء منصة المعلم وواصل إفراغ معدته بعواء أشد!

وشاع في المدرسة أنه جاء إلى عمله مخموراً فطالبه مديرها بالاستقالة، ورجع عصفور إلى بيت صديقته البوهيمية ولخص لها حاله في كلمات موجزة هي: جاءني طفل لا أريده.. وفقدت وظيفة لم أكن أحبها!

وزار عصفور المستشفى الذي يرقد به طفله ورآه في الحضانة من خلف الزجاج فهالته بشاعة شكله وهيئته، وبعد حوار باطني قصير مع نفسه سلم بأنه لا يريد هذا الطفل على أي حال من الأحوال وليس مستعداً أبداً لمواجهة مسؤوليته، وأبلغ الطبيب المختص بقراره الخطير وهو أنه لا يريد تقوية الطفل لكي يتحمل الجراحة المشكوك في نتيجتها وإنما يريد إضعافه بتقديم اللبن المخفف بالماء أو الماء المسكر له حتى يموت تدريجياً ويستريح!

ويمتثل الطبيب لرغبة الأب الذي يعطيه القانون في بلاده هذا الحق البشع، وينصرف عصفور واجماً ومكتئباً وينتقل للإقامة الدائمة في مسكن صديقته في انتظار رنين التليفون الذي سيحمل له نبأ وفاة الطفل في أية لحظة.. وتوثق الحياة المشتركة الروابط بينهما من جديد حتى يفاجأ بها بعد أيام تشاركه حلم أفريقيا وتؤكد له اعتزامها مصاحبته إليها، ويستغرق عصفور في أحلامه فيقول: حين يموت الطفل وتسترد زوجتي صحتها سأحصل على الطلاق.. وأذهب إلى أفريقيا وأصبح حراً أفعل ما أشاء حيث أشاء!

لكن انتظاره لمكالمة المستشفى التي ستحمل له (البشرى) يطول وينغمس خلال فترة الانتظار في مشكلة دبلوماسي أجنبي صديق وزميل له في جمعية الدارسين الثقافية، فلقد أحب الدبلوماسي الذي يعمل بسفارة إحدى دول البلقان الشيوعية

فتاة يابانية وهجر مكتبه وسفارته وأقام معها في مسكن صغير بحي شعبي مزدحم.. والسفارة تستنجد بأعضاء الجمعية لإقناعه بالعودة بهدوء حتى لا تضطر لترحيله لبلاده بالقوة.. وعصفور هو أقرب الأعضاء إلى قلبه، فيبحث عنه حتى يعثر عليه ويرفض الدبلوماسي العودة مضحياً بكل شيء، ويسأل عصفور عن أحواله فيحكي له قصة المولود المشوه الذي يترقب موته بلهفة، فيتساءل الدبلوماسي العاشق متعجباً: ولماذا تنتظر موته وفي استطاعتك إجراء جراحة لإنقاذه أيا كانت نتائجها؟! فيغادره عصفور مضطرباً ومرتبكاً!

وأخيراً يستدعيه المستشفى فيسرع إليه متصوراً أن المشكلة قد حلت بوفاة الطفل فيفاجأ بالجراح الكبير يبلغه بأن صحة الطفل قد تحسنت كثيراً ويطلب موافقته على إجراء الجراحة له!

ويواجه عصفور لحظة الاختيار الحاسمة وتشاركه صديقته التفكير واتخاذ القرار الصعب فيحسم أمره في النهاية بعدم موافقته على إجراء الجراحة ويطلب منه المستشفى تسلم طفله ومغادرة المكان.

وتشير عليه صديقته وقد ازدادت حماساً لفكرة المغامرة والرحيل إلى أفريقيا - بإيداع الطفل عيادة طبيب مشبوه تعرفه وتغذيته بالماء المسكر فقط إلى أن يموت تدريجياً!

وتصاحبه إلى المستشفى فيتسلم طفله ويستعيد قيمة التأمين الكبير من خزينته، وتجوب السيارة الشوارع الضيقة والمتعرجة بحثاً عن عيادة الطبيب. وخلال رحلة البحث تفاجأ صديقته وهي تقود سيارتها بعصفور ميت ملقى على الأرض فتنحرف بسيارتها عنه حتى لا تدوسه وتسقط بها في حفرة بالطريق فتهتز السيارة بعنف ويبكي الطفل بشدة.

ويودعان المولود عيادة الطبيب في النهاية.. ويشعران بحاجتهما إلى ما يخفف عنهما اضطرابهما النفسي من أثر ما فعلا، فيميلان إلى حانة يملكها أحد معارفهما.. ويتحدث إليه عصفور عن نفسه فيقول له: أنا ضائع.. وخائف، وأحاول الهروب من كل شيء!

أما صديقته فتتحدث عن الإثارة والغموض وحياة المغامرة التي سيعيشانها في أفريقيا خلال وقت قريب.. فتفاجأ بعصفور وقد تغيرت ملامح وجهه فجأة واكتسبت هيئة جادة غريبة يعلنها بتصميم أنه سيسترد طفله من عيادة الطبيب المشبوه، ويعيده إلى المستشفى لإجراء الجراحة له مهما كانت نتائجها، وتجادله صديقته في جدوى ذلك وتأثيره على خططهما.. وتذكره بأنها شريكته حتى في جريمة إضعاف المولود لقتله.. فيجيبها بمرارة: أتذكرين حين انحرفت بسيارتك إلى الحفرة حتى لا تدوسي عصفورا ميتاً في الطريق؟.. هل هذا ما يفعله شخص مقدم على قتل وليد؟

كأنما يلومها على موافقته على قتل طفله بلا شفقة ليعيشا حياة لاهية وهي التي لم تطق وطء عصفور ميت، ثم يشرح عصفور نفسه أخيراً فيقول: منذ ولد هذا الطفل

وأنا لا أكف عن الهرب من المشكلة بدلا من مواجهتها، فإذا أردت أن أواجه هذا (المسخ) بشرف بدلاً من الفرار منه فإما أن أقتله بيدي، وإما أن أقبل به وأتحمل مسؤوليتي عنه. وأرعاه أيا كانت حالته، ولقد قررت أن أكف عن الهرب وأن أتحمل مسؤوليتي عنه.

وبالفعل يستعيد عصفور طفله الوليد من عيادة الطبيب ويعيده إلى المستشفى ويدفع تكاليف الجراحة ويتم إجراؤها له ويتبرع لوليده خلالها بكميات كبيرة من دمه، ويتبين أن الطفل ليس مصاباً بفتق في المخ كما كان الظن، وإنما بورم حميد تمت إزالته فتضاءل حجم النتوء البارز من رأسه حتى أصبح لا يكاد يرى بالعين المجردة، وبعد أسبوعين بدأ الطفل يستعيد هيئته البشرية إلى حد كبير وبدا الجميع يلاحظون شبهه بأبيه.

وفي المستشفى يقول الأستاذ الجامعي لزوج ابنته: لقد عرفت كيف تواجه المشكلة هذه المرة ولا تهرب منها يا عصفور.

فيجيبه متفكراً بأنه يبدو أن الواقع قد يرغم الإنسان أحياناً على أن يحيا بطريقة صحيحة حين يعيشه ويكف عن خداع نفسه، ولهذا فقد قرر أن (يعكس)، حلم العمل كمرشد سياحي في أفريقيا ويبقى إلى جوار أسرته ويعمل مرشداً سياحياً للسياح الأجانب في بلده، إذ أن هذا ما يمليه عليه واجبه ومسؤوليته تجاه ابنه وزوجته ونفسه.

ويصغي الأستاذ الجامعي لما يقوله زوج ابنته بارتياح شديد ثم يقول له بإعجاب: لقد تغيرت كثيراً خلال الأسابيع الماضية ولم تعد هذه التسمية الصبيانية (عصفور).. تناسبك الآن!

هذه هي الرواية الجميلة التي قرأتها خلال الأيام الماضية واستغرقتني أحداثها وشخصياتها فأثارت تأملاتي عن (العصفور) الذي يكمن داخل كل إنسان ويوسوس له في بعض الأحيان أن يتخلص من كل (القيود).. ويحلق في السماء حراً طليقاً متحرراً من كل الالتزامات والمسؤوليات وأن يحيا حياته كما يريدها لنفسه وليس كما جرت بها المقادير.. فإذا قابلته مشكلة من المشاكل لا يجهد نفسه بمواجهتها وتحمل تبعات المواجهة، وإنما (يطير)، من أرض المشاكل، ليحط في مكان آخر، لا مشاكل فيه ولا عناء وهكذا إلى ما لا نهاية..

وهو خاطر يكاد لا يخلو منه عقل إنسان حتى قادة الجيوش أثناء احتدام المعارك، لكن قليلين فقط، هم من يستسلمون له فيحكمون على أنفسهم بحياة الهاربين.. يستمتعون نعم.. ولكن يعانون أيضا من انعدام الجذور وندرة الروابط الحقيقية التي تربطهم بالحياة.. أما الآخرون وهم الأغلبية العظمى من البشر. فهم يحتفظون بهذا العصفور في مخيلتهم ولا يرون بأساً من مداعبته من حين إلى آخر ترويح عن النفس إذا اشد كربها بهموم الحياة.. لكنهم أبداً لا يستسلمون له ويفضلون دائماً مواجهة مشاكل الحياة وتحمل عواقب هذه المواجهة بشرف.. ويعرفون جيدا أن الهروب لا يجدي وحياة العصافير لا تحل مشكلة.. ولا تغير أمراً

واقعا، وإنما يبدأ الإنسان أولى خطواته الصحيحة على الطريق إلى حل مشاكله حين يكف عن خداع نفسه.. ويواجه متاعبه.

هذا هو الدرس، الذي خرجت به من هذه الرواية الممتعة التي ترجمها الأستاذ صبري أبو الفضل ترجمة راقية وعكست تجربة المؤلف الياباني الشخصية حين رزق بطفل متخلف فكان له أكبر الأثر على أدبه.

أما (الذكرى)، التي ذكرتني بذلك الفيلم القديم عن الزوجة الحالمة التي تتأثر بشخصيات ما تشاهده من أفلام، فسوف أحكيها لك بلا خجل تاركاً الحكم عليها لإنصافك، فلقد كنت أقرأ هذه الرواية في فراشي منذ أيام إلى أن غلبني النوم وسقط الكتاب من يدي كالعادة، فكان آخر ما قرأته منها تلك الليلة هو وصف الكاتب الدقيق إلى حد الإبداع لحالة الغثيان التي انتابت بطل الرواية، والتقلصات المؤلمة التي أحس بها في معدته.. والآلام الرهيبة التي أحسها وهو يفرغ جوفه عدة مرات في الصباح، ثم في الفصل الدراسي، ثم رحت في النوم وصحوت في الصباح - صدقني - على تقلصات شديدة في معدتي أنا وليس معدة بطل الرواية، وغثيان مؤلم وخانق وهرولت إلى الحمام، حيث تكرر المشهد الذي قرأته قبل ساعات بكل تفاصيله الموجعة.. وأمضيت نهار ذلك اليوم سقيماً مريضاً.

فإذا قلت لي: إنها مصادفة غريبة وإنني لابد أني قد طعمت شيئاً ملوثاً في الخارج فحدث ما حدث. أجبتك بأنني أعيش على الطعام المسلوق ولا أكاد أتذوق شيئاً خارج بيتي، إلا للضرورة الاجتماعية القصوى ولم أكن مدعواً أو داعياً في الليلة السابقة إلى غداء أو عشاء خارج بيتي.. فمن أين جاءني هذا الغثيان القاتل؟ لقد استشرت طبيباً في الأمراض الباطنة فيما حدث لي فلم يجد تفسيراً عضوياً له.. وأكد لي أن التفسير الوحيد له هو تأثر عقلي الباطن بأحداث الرواية.. ومشهد الغثيان الذي أجاد الكاتب تصويره بدقة إلى حد الإبداع.. وأن هذا العامل النفسي وحده يمكن أن يكون له هذا الأثر.

هذا هو تفسير الطبيب الباطني.. فهل ترى أن الوقت قد تأخر كثيراً على استشارة الطبيب النفسي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلا أنا...وأنت!

كان لي في بداية شبابي زميل.. حكمت عليه بعد قليل من اقترابي منه بأنه (معجزة) مخالفة لأطوار الإنسان الطبيعية! فالإنسان يولد طفلاً ثم ثم يصبح صبياً فشاباً فكهلاً فشيخاً. أما زميلي فلقد ولد أغلب الظن (كهلاً) وثبت على ذلك منذ مولده إلى أن تعرفت به وهو في العشرينيات من عمره فملامح وجهه مهمومة وممتعضة دائماً وعيناه منطفئتان لا أثر لحيوية الشباب ومرحه فيهما.. وروحه خامدة وفاترة تجاه كل الأشياء.. وحركته بطيئة ورغبته في الحياة منعدمة.. أما حديثه نخير منه السكوت، فهو لا يتكلم - إذا تكلم - إلا ليعلّق على حديث زميل آخر بما يلقي ماء بارداً على روحه وحماسه للعمل والحياة، فإذا كان أحدنا يتحدث عن عمل نجح في أدائه وسعد بنجاحه في ذلك، نظر إليه في فتور وقنوط وضيق وقال له عبارته الشهيرة.. وإيه يعني؟ أو ماذا يساوي ذلك؟

وإذا كان أحدنا يتحدث عن أمل يراوده في عمله أو حياته ويسعى بجد إلى تحقيقه، أطلق في وجهه عبارته المقتضبة الكئيبة: وماذا سيحدث حتى لو حققت ذلك.. هل ستصعد الجبل أو ستحصل على تاج الجزيرة؟

أما إذا سمع أحدنا يتحدث بإعجاب عن أستاذ له في العمل أو الحياة، أو يذكر إنساناً بخير.. أو يحكي عن فضل أحد أو علمه أو كرم أخلاقه فإنه سوف يصمت مكتئباً بعض الوقت.. ثم يبدأ في حديث طويل عن نفس هذا الشخص الذي جاء ذكره في الحديث ويكشف، بما أتيح له من علم ببواطن الأمور، (حقيقته)، وكيف أنه إنسان مزيف.. وغير أمين.. ويسرق جهد الآخرين و.....، فإذا سألته وكيف عرفت عنه ذلك وأنت لم تحتك به ولم تتعامل معه؟ أجابك بأنه يعرف ما لا تعرفه أنت، ثم يسخر من سذاجتك وتوسمك الطيبة والأخلاق الكريمة في هؤلاء الأوغاد في حين أن كل الناس فاسدون وأشرار ما عدا هو ومن يستمع إليه بالصدفة في هذه اللحظة! أي أنا وأنت فقط والباقي جميعاً من الأوغاد! وحين تكررت زياراته لجلستنا الليلية وتضاعفت جرعة السموم التي ينفثها في جو سهرتنا.. بدأت أشعر بعد قليل من انضمامه إلينا بالصداع وضيق التنفس.. وآلام الظهر.. وبدلاً من أن أنهض من جلستنا كل ليلة باسماً مقبلاً على الحياة وأملاً في الغد وجدت نفسي بعد قليل أغادر الجلسة خامد الروح غير متحمس لأي شيء.. وأذهب إلى عملي في الصباح متباطئاً وفاقداً لحماسي السابق.. وتحيرت فيما أصاب روحي من جمود وفتور وتداولت في الأمر مع صديقين لي فإذا بهما يشكوان لي من نفس هذه (الأعراض)، ومن فتورها تجاه العمل والحياة، وكعادتنا فيما يعرض لنا من مشاكل تأملنا الظاهرة وحاولنا تحليل أسبابها واجتهد كل واحد منا في تفسيرها.. فقال أحد الصديقين أنه (الجو العام) في العمل الذي يثير الإحباط.. وقال الصديق الآخر أنه ربما يكون (اكتئاب الشتاء) الذي يصيب الروح أحياناً مع الغيوم والأمطار والبرد الذي يقيد حركتنا في المساء على عكس مرح الصيف ولياليه الممتعة.

لكني لم أقتنع بذلك وتفكرت طويلا فيما قالاه ثم وجدت نفسي أهتف فجأة: لا إنه ليس جو العمل.. ولا غيوم الشتاء.. إنه زميلنا اليائس من كل شيء فلان!

ونظر الصديقان إليّ مندهشين فواصلت حديثي بانفعال: نعم إنه (فلان).. فهو بؤرة اكتئاب متحركة تنفث كآبتها وفتورها ويأسها وكراهيتها للبشر في دائرة قطرها نصف ميل!

ومن يدخل دائرة إشعاعاتها الاكتئابية يجد نفسه بعد قليل خامد الروح كارهاً للجميع.. ومكتفياً من العمل والكفاح بنقد أعمال الآخرين وانتقاص أقدارهم.. ومتوجساً من الجميع ومستريباً فيهم.. وفاقداً للحيوية والنشاط، وشاعراً بالصداع وكل الآلام لأنه قد بدد طاقته النفسية في اليأس والإحباط وكراهية الآخرين.. وهذا هو الباب الملكي للصداع والقلق وتوتر الأعصاب الدائم.

وأسهبت في الدفاع عن نظريتي.. وقلت للصديقين إن كاره الإنسان لا يصلح أن يكون صديقاً ولا إنساناً ناجحاً في عمله أو في حياته الخاصة، ولا يستفيد منه من يعرفه شيئاً سوى تسميم روحه بالعداء للبشر.. وسوء الظن فيهم.. وتوقع الشر قبل الخير منهم إلى جانب تشويه القيم وإنكار فضائل الآخرين.. وتكبيل إرادة الإنسان بهذه الأفكار السلبية التي تؤثر على حماسه للعمل.. ولا تؤدي به في النهاية إلا للانضمام إلى طابور العجزة.. والحاقدين وكارهي البشر وأعداء النجاح، وخلصت من (مرافعتي)، إلى نتيجة حاسمة هي إننا يجب أن نحمي أرواحنا من إشعاعات هذا الزميل الاكتئابية الحادة ويجب أن نتجنبه كما يتجنب الإنسان مصدر العدوى.. ونقصيه عن جلستنا وحياتنا قبل أن يفسدها.

ولم أكن مغالياً فيما قلت ولا فيما اتخذت بعد ذلك من قرار شخصي صارم التزمت به مع هذا الزميل ومع أمثاله بقية رحلة العمر.. وهو أن أفر منهم فرار السليم من الأجرب وأنفر من صداقتهم لكي أنجو من إشعاعاتهم المدمرة.. ولا عجب في ذلك.

فالحيوية والحماس واليقظة الروحية عدوى، وخمود الروح وفتور الإرادة.. وقلة التحمس للأشياء والحياة عدوى أيضاً!

واختلاط الإنسان بأصحاب هذه الصفات وتلك واقترابه الشديد منهم يؤثر عليه بغير أن يتنبه لذلك ويكسبه رغماً عنه بعض صفاتهم إن لم يحترس لنفسه، لهذا فقد قال الكاتب الأمريكي إيمرسون: إنني أنشد صديقاً يحفزني بحماسه للحياة، على أن أصنع ما أستطيع صنعه، ولست أريد صديقاً يثبط عزيمتي بخمود روحه ويأسه من كل شيء فأنكص عن أداء ما أستطيع أداءه لو تحليت بصفة الحماس!

وفي كتابه الممتع (سجن العمر) يروي توفيق الحكيم أنه كان يستذكر دروسه في كلية الحقوق في الليل فيشعر بالتعب ويهم بغلق كتابه والذهاب إلى فراشه فينظر من نافذته، فيرى نافذة زميل له، بنفس الكلية مازالت مضيئة رغم تأخر الوقت.. ومازال الزميل منكباً على دروسه.. فيستعيد على الفور بعض نشاطه ويقاوم التعب ويواصل استذكار دروسه.. ويقول أنه لو كان زميله هذا متكاسلاً أو

مهملا لواجباته لقدم له الإغراء المعنوي بأن يكتفي هو أيضا بما حصل من دروس ويستسلم لإغراء الراحة والكسل لكن زميله هذا لم يكن من هذا النوع، بل كان أحد نوابغ القانون الذين عرفتهم مصر، فقد كان د. حلمي بهجت بدوي أستاذ الحقوق أول من شغل منصب رئيس شركة قناة السويس بعد تأميمها.

وهكذا يفعل الحماس والغيرة الإيجابية بالإنسان فالغيرة الإيجابية هي أن يحفزك حماس المتحمسين لأن تبذل المزيد من الجهد لبلوغ أهدافك كما بلغوها هم. أما الغيرة السلبية فهي أن تضيق بما حققه الآخرون لأنفسهم بكفاحهم وعرقهم وتتمناه لنفسك دون أن تبذل قطرة عرق واحدة في سبيله.

وهذه الغيرة الإيجابية هي التي كان يقصدها الفنان الأسباني العظيم سلفادور دالي حين قال: الغيرة من الفنانين الآخرين كانت دائماً دافعاً قوياً لنجاحي!

والناجحون الحقيقيون هم هؤلاء الأشخاص الذين يحتفظون بقدرتهم على الحماس للحياة حتى النهاية، والذين يحددون أهدافهم بوضوح ويسعون وراءها بدأب (كما يسعى القط وراء الفار الذي يطارده)، على حد تعبير بنجامين فرانكلين، ذلك أن من يعرف ما يريد لا تهزه الصدمات ولا يفقده الفشل شجاعته وإيمانه بربه ونفسه وقدراته، وإنما يحفزه الفشل إلى تكرار المحاولة مرة بعد أخرى أملاً في بلوغ الأهداف.

وأهداف الحياة تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر .. لذلك فمن المفيد دائماً أن يحدد الإنسان لكل مرحلة من مراحل عمره هدفاً رئيسياً يسعى إليه.. ويركز معظم جهده عليه.. فالطالب ينبغي أن يكون هدفه إنهاء تعليمه بنجاح.. والخريج ينبغي أن يكون هدفه الحصول على عمل ملائم، وصنع مقومات حياته الشخصية وكلما حقق الإنسان هدفاً جليلاً من أهداف حياته.. وضع لنفسه هدفاً آخر قريباً ومتلائماً مع إمكانياته واستثمر حماسه للسعي وراءه.. فالتوقف عن الأمل في شيء أو السعي وراءه لا يعني كما يقول الأديب الأيرلندي العظيم برناردشو (إلا، انتهاء مأمورية الإنسان في الحياة بحيث لا يصبح صالحاً بعدها لشيء سوى للموت)!

ولكي يحقق الإنسان أهدافه هدفاً بعد هدف، عليه أن يتجنب اليأس والإحباط، وصحبة فاقدي الحماس وكارهي الإنسان والبشر وأن يتعلق دائماً بالأمل في الله وفي الحياة والمستقبل. فالذين يعيشون بإحساس أنه ليس هناك (غد أفضل)،.. لا يجدون بالفعل هذا الغد حتى حين يصلون إليه؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يستحقوه، أما الذين يومنون مع مرجريت ميتشل مؤلفة رواية ذهب مع الريح بأن (في الغد دائماً متسع لكل شيء)، فإنهم لا تفتر إرادتهم للحياة ولا يتراخون في السعي وراء أهدافهم، فإما أن يحققوها ويسعدو بذلك وإما أن ينالوا لذة العيش في حماس وأمل حتى آخر لحظة من عمرهم!

ولن يحتفظ الإنسان بإيمانه بالحياة وتفاؤله إلا إذا صاحب في الدنيا أهل القيم الأخلاقية والدينية والفضائل الإنسانية ومن يحبون الإنسان ويتوسمون فيه الخير قبل الشر ويأخذون أمر أخيهم على أحسنه حتى يأتيهم منه ما يغير رأيهم فيه،

فهؤلاء هم (إخوان الصدق الذين نصحك العظيم عمر بن الخطاب بأن تعيش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء)، كما نصحك أيضاً (بألا تصحب الفجار فتتعلم من فجورهم).

وأسوأ من اليأس والإحباط وصحبة فاتري الحماس وكارهي الإنسان أن تبدأ عملاً ولا تتمه على الوجه الأكمل، أو أن تتخبط في طرق الحياة فتمضي في هذا الطريق بضع خطوات ثم تتوقف وترجع من حيث بدأت وتمضي في طريق آخر بضع خطوات ثم تتوقف وهكذا.. فمن يعرف أهدافه بوضوح لابد له أن يمضي إلى غايته حتى النهاية، واللمسة الأخيرة السليمة في كل عمل أهم دائماً من خطوة البداية، لأنها هي التي تترجم كل ما بذلت من جهد في تحقيق الهدف النهائي.. والشاعر العربي يقول:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وتاريخ الأدب الإنجليزي يروي لنا أن الشاعر كولريدج قد خلف وراءه عدداً هائلاً من القصائد والأبحاث التي بدأها ولم يتمها أو تحول عنها فبدأ غيرها ولم يتمها أيضاً، فبدد بذلك جهداً ثميناً.. وأفسد أعمالاً كانت جديرة بأن تخدم الإنسانية وتزيد من نجاحه، والعمل الناقص في النهاية كالعمل الفاشل سواء بسواء.. وكلاهما مرجعه إلى عدم وضوح الأهداف وفتور همة الإنسان التي لو تعلقت (بالثريا) لنالها كما يقول لنا الرسول الأمين .

أما ذلك الزميل كاره البشر الذي نبهنا مبكراً لهذا الخطر الجسيم على أرواحنا.. فقد ظل (كهلاً) في روحه وجسمه وملامحه، حتى بادره الهرم مبكراً وهو في بداية الثلاثين وتسللت تجاعيد روحه إلى.. فازدادت امتعاضاً وتغضّنا وكآبة.. وتسلل الشعر الأبيض إلى (فوديه). وهو في الثلاثين فصار كهلاً روحاً وشكلاً.. وقابلته آخر مرة بالصدفة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره فرأيته (شيخاً) متهدماً متجعد الوجه أشيب الشعر كابي النظرة.. فلم أملك نفسي من أن أسأله مداعباً: ما هو سر احتفاظك (بشبابك) حتى الآن؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأصابع الملوثة!

هذا سر لا أخجل منه.. وإنما أعتز به وأفخر!.. أما السر فهو أنني أعيش (عالة)، على أصدقائي فيما أكتب وأصدر من كتب، ولولاهم لما كتبت نصف ما كتبت، ولما أصدرت بعض ما أصدرت من كتب بلغت حتى الآن 26 كتاباً!

أما كيف (يعولني) أصدقائي فيما أكتب من مقالات وقصص قصيرة وصور أدبية، فدعني أشرح لك الحكاية من بدايتها.

الحكاية أنني من كُتَّاب (العصر الحجري)، الذين لا يألفون الكتابة ولا تنساب أفكارهم على الورق إلا إذا أمسكوا القلم بأيديهم وسجلوا ما يفكرون فيه بخطهم.

الكتاب المعاصرون يدقون بأصابعهم على الآلة الكاتبة ما يعنُّ لهم من أفكار، وبعضهم انتقل منذ سنوات من مرحلة (الدق) إلى مرحلة اللمس، باستخدام أجهزة الكمبيوتر الحديثة التي لا تحتاج لأكثر من لمسة لمفاتيحها، وبعضهم الآخر تجاوز الآن مرحلة (اللمس)، إلى مرحلة (الهمس)، وأصبح يهمس بأفكاره وهو مستلق على أريكة مريحة إلى آلة التسجيل الصغيرة، ثم تقوم سكرتيرة عنه بتفريغ الشرائط وكتابتها على الآلة الكاتبة وتعرضها عليه فيراجعها ويوقعها بإمضائه.. فتصير مقالاً أو قصة قصيرة!

وأنا مازلت حتى الآن لا أستطيع الكتابة إلا بالقلم وأعيد كتابة المقال الواحد مرتين وأحيانا ثلاث مرات وأراجعه بعد كتابته على الآلة الكاتبة بواسطة سكرتيرتي وأعدل وأبدل فيه وأشطب منه وأزيد فيه، بخط يدي!

ولقد جربت الكتابة على الآلة الكاتبة فوجدت أفكاري تتشتت وتتركز غالباً حول أصابعي.. وليس حول ما أريد الكتابة عنه. وجربت الهمس لجهاز التسجيل أو إملاء من يكتب عليّ ما أريد كتابته، فوجدت أفكاري تتقطع وتتعثر والكلمات والتعبيرات تراوغني وتتهرب مني.

وتعجبت كيف يستطيع بعض الأدباء إملاء أفكارهم لغيرهم مع الاحتفاظ في نفس الوقت بالقدرة على ترتيب الأفكار وخصوصية الأسلوب. وقد أملى أبو العلاء المعري كل أشعاره وتصانيفه الأدبية لتلاميذه، وأملى إسماعيل البغدادي القالي وكان عالماً لغوياً عظيماً ولد في أرمنيا ومات في قرطبة عام 967 م، كل تصانيفه لغيره وأشهرها كتاب (الأمالي)، الذي تحيرت طويلاً خلال صباي في فهم معنى عنوانه، إلى أن عرفت فيما بعد أنه جمع كلمة (إملاء). وأملى عميد الأدب العربي طه حسين كل مؤلفاته وأعماله الأدبية لغيره، وكان أكثر من كتب عنه ولسنوات طويلة هو سكرتيره الراحل فريد شحاته أما عميد الأدب الساخر محمود السعدني فهو يملي بعض مقالاته على غيره، ويكتب بيده بعضها الآخر حين لا يجد من يملي عليه وبخط يصعب على كثيرين قراءته! وقد زرته ذات مرة في الصيف في شقته بلندن فوجدته يملي على ابنه أكرم مقالاً له،

وتعجبت لقدرته على ترتيب الأفكار بغير أن يمسك القلم بيده.. وعجبت أكثر لانفعاله وتركيزه الشديد في إملاء المقال ذاهلاً عما حوله كأنما يخشى أن تفر منه الفكرة إذا تلفت حوله للحظات، ولفت نظري أيضا أنه يملي على ابنه إلى جانب الكلمات.. النقطة والفاصلة. وعلامة الاستفهام.. وعلامة التعجب!

أما إذا كتب بيده فإنه يكتب بقلم الحبر الجاف ولا أعرف كيف يحتمل الكتابة به لفترة طويلة بل ولا أعرف أيضاً كيف كان العقاد العملاق يكتب مؤلفاته بالقلم الرصاص مع خشونته وصعوبة الكتابة به لفترة طويلة ولا كيف يحتمل ذلك الآن صديقي أحمد بهجت.

أما أنا فلم أستطع أبداً الاسترسال في إملاء أحد ما أريد التعبير عنه لأكثر من بضع عبارات ثم توقفت يائساً من المحاولة، ولم أستطع أبداً أن أستسيغ الكتابة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ويئست من محاولة التعبير عن نفسي بهذه الطريقة.

وبعد تجارب ومحاولات عديدة سلمت بأن الأفكار والكلمات لا تطاوعني إلا إذا كتبت ما أريد كتابته بخط يدي وبقلم الحبر السائل وعلى ورق أصفر ناعم! فحتى أقلام الفلوماستر التي تسهل الكتابة وتيسرها لا أستطيع الكتابة بها ولا أستخدمها إلا في مراجعة الأعمال الصحفية.

أما الكتابة الأدبية.. فلا وسيلة لها عندي سوى هذه الأدوات الحجرية.. وسوى هذه الطقوس (البائدة)، (، وهي أن يكون القلم من طراز شيفرز وسنه متوسط السمك ليس رفيعاً ولا سميكاً، ومداده من حبر باركر الأزرق الغامق.. ولو كان فاتحاً لما استرسلت في الكتابة ولو كان أسود قائماً لتوقفت عنها بعد بضعة سطور. أما الورق فلابد يكون أصفر اللون ناعماً ولا أعرف كيف استقريت على هذه الطقوس ولا كيف ترسخت وارتبطت عندي بسهولة الكتابة حتى ليفسد مزاجي إذا افتقدت أحدها.

ومن هذه النقطة بدأ دور أصدقائي المقيمين خارج مصر وما أكثرهم والحمد الله.. في إنتاجي الأدبي!

فالحبر الأزرق الغامق من ماركة باركر ليس مسموحاً باستيراده في مصر لوجود البديل من الإنتاج المحلي الذي لم أستطع استساغته، والورق الأصفر الناعم لا يتوافر كثيراً في الأسواق المحلية. أما القهوة الفرنسية أو الإيطالية (الإكسبريسو) التي لا أحتسي سواها خلال الكتابة.. فليست أيضاً شائعة في الأسواق.

ولا أدري كيف علم أصدقائي خارج مصر بكل ذلك فتطوعوا مشكورين لتوريد كل مستلزمات الكتابة، وتوالت عليّ هداياهم الكريمة منها.. ولأنه:

خير الهدايا ما يجيء مع الهوى

من غير ما طلب ولا

إطناب.

كما يقول الشاعر عبد الحليم المصري (1887 - 1922).

فلقد سعدت كثيرا بهداياهم هذه التي تجيء (مع الهوى)، وتلبي رغبات وتحكمات عرائس الأفكار في شخصي الضعيف.

وأصبح أصدقائي ومنذ سنوات طويلة لا يرجع أحدهم إلى مصر إلا وفي حقيبته لي بعض رزم الورق الأصفر أو بعض زجاجات الحبر الباركر أو بعض أكياس القهوة الفرنسية والإيطالية!

ومع أن أقلام الشيفرز متوفرة في الأسواق المحلية فإنه لا يمضي عام إلا ويتحفني أحدهم بقلم جديد متمنياً لي كتابة طيبة ومريحة به!

وعلى مدى سنوات طويلة، فإني لم أشعر أبداً بالخوف من نفاد الاحتياطي (الاستراتيجي) عندي من الورق أو الحبر أو القهوة!

إذ ما أن تتناقص كميات أحد هذه المستلزمات بعض الشيء إلا وأفاجأ (بالفرج)، قادماً مع صديق عائد من الخارج أو مع رسول أمين أوفده أحد الأصدقاء المخلصين بشحنة إنقاذ جديدة!

وشاع ذلك بين أصدقائي فاستراحوا.. وأراحوا إذ عرف كل منهم أنه إذا رغب في أن يقدم لي هدية فلن يجد أفضل من هذه الهدايا الأدبية، التي تعينني على الكتابة والتي أسعد بها أكثر من أي شيء آخر.

حتى لقد جاء صديق مقيم بالبحرين إلى مكتبي بالأهرام ذات يوم طالباً مقابلتي، ولم تكن سكرتيرتي تعرفه، وفشل هو في إقناعها بأنه صديق شخصي لي فتمسكت بأن تحدد له موعداً بعد يومين، وهمَّ هو بالانصراف يائساً لكنه قبل أن يتحرك طلب منها أن تبلغني فقط بأن فلاناً (بتاع الورق الأصفر)، كان قد جاء لمقابلتي وانصرف! فما أن نطق بكلمة السر هذه حتى تشبثت به سكرتيرتي راجية منه عدم الانصراف ودخلت لتبلغني بمقدمه السعيد فانتفضت واقفاً تحية للصديق.. وللورق الأصفر!

وكلما راجعت مخزوني الاستراتيجي من الورق والحبر والقهوة شعرت بالامتنان الشديد لأصدقائي وتساءلت صادقا ترى ماذا كنت فاعلاً بحياتي لو لم ينعم عليّ ربيّ بصداقة كل هؤلاء الأحباء؟

صحيح أنني أبدو بعد انتهاء جلسة الكتابة الطويلة كعامل من عمال مصبغة لصبغ الملابس (بالنيلة) الزرقاء، وأن أصابعي تتلطخ بالحبر.. وملابسي لا تخلو أبداً من بقعة زرقاء خصوصاً وأنني أفتح زجاجة الحبر أمامي وأغمس القلم فيها كما لو كان ريشة. لكن كل شيء يهون في سبيل أن ترضى عرائس الإلهام وتتعطف فتسلمني زمامها.. وتسيل أفكاري على الورق.

ولأن الحذر لا يغني أبداً عن قدر، فلطالما قررت الاحتراس من بقع الحبر حتى لا تلوث ملابسي وأصابعي وبدأت الكتابة متنبهاً وحريصاً، فما أن أمضي فيها بعض الوقت حتى تستغرقني تماماً وأذهل عما حولي، وتنتهي الجلسة بعد 5 أو 6 ساعات فأفاجأ بأن كل ما تحرزت منه قد وقع، وتسرب الحبر إلى أصابعي.. وتسللت بقعة أو اثنتان إلى ملابسي، ولولا أنني أكتب في البيت وليس في مقر

العمل، لما استطعت مواجهة أحد بمظهر عمال الصباغة هذا عقب كتابة كل مقال.

فإذا سخطت على غفلتي وذهولي، وأنا أغسل أصابعي وأحكها لإزالة آثار الحبر منها بعد الكتابة، هونت الأمر على نفسي بأن ما فعله بي الذهول، والاستغراق في الكتابة أهون كثيراً مما فعله بأعظم عالم رياضي في العصور القديمة وهو أرشميدس السراقوسي، فقد روى المؤرخ بلوتارك، أنه خلال حصار الرومان لمدينة سراقوسة أو (سيركوزا)، كان أرشميدس منكباً على حل مسألة رياضية فلم يحفل بسقوط المدينة، ودخل عليه جندي روماني وأمره بأن يتبعه إلى مقر القائد.. ومع ذهوله واستغراقه الشديد في حل المسألة الرياضية رفض أرشميدس أن يتحرك من مكانه إلا بعد أن يتوصل لحل لمسألته فغضب الجندي الروماني الأحمق واستل سيفه وقتله به.. وقضى بذلك على حياة واحد من أعظم علماء العصور القديمة وأكثرهم خدمة للإنسانية.

فإذا كان الأمر كذلك.. فما أهون بقعة حبر هنا أو هناك في الملابس، وما أهون تلوث الأصابع لبعض الوقت بالحبر بالمقارنة لما حدث لصديقي أرشميدس.

ولكل عروس مهرها في النهاية ومهر عرائس الإلهام والأفكار عندي هو هذه الطقوس والأدوات الحجرية للكتابة.

ولقد كفاني أصدقائي - أدامهم الله لي - مؤونتها وتباروا في إمدادي بها بانتظام فضلاً منهم وكرماً.

أفلا أكون صادقاً إذن إذا قلت لك إننى أعيش (عالة) على أصدقائي فيما أكتب وأنشر من إنتاج أدبي؟

وألا يحق لي بعد ذلك أن أنسب الفضل لأصحاب الفضل وأشكرهم عليه مؤدياً بذلك واجباً دينياً وأخلاقياً هو شكر كل من يستحق الشكر على صنيعه؟

وألم يقل بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاكتمه وإذا اصطنع إليك فانشره؟

ها أنذا (أنشره) وأقر بالفضل لكل الأصدقاء وأريد أن أقول لك عنهم الكثير والكثير مما يستحقونه ويستحقون أكثر منه لكني مضطر لأن أتوقف عن الكتابة الآن للأسف لكي أغسل أصابعي وأبدل ملابسي فعفواً لهذا التقصير مني.. وشكراً لكل الأحباب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخوف يا صديقي!

لي صديق متين البنيان عملاق الطول لـه نصيب من هيئة المصارعين.. وأبطال كمال الأجسام.. ولو صارع شخصاً لهزمه بالأكتاف في لحظات ورغم كل ذلك فلقد كان معروفاً بيننا بشيء عجيب هو أنه يرتعب من القطط رعباً شديداً يشل حركته ويسيل العرق البارد على وجهه ويزيد من ضربات قلبه!

فإذا عبرت بجواره - وأنت تتحدث إليه - - قطة صغيرة اختلس إليها النظر في خوف وترقب إلى أن تمضي القطة في طريقها بسلام.. أما إذا كانت القطة من النوع الودود وتمسحت في أقدامه كما تفعل بعض القطط أحياناً.. فلسوف يصفر وجهه.. ويسيل العرق من جبهته ويظل متجمداً في موقعه إلى أن (ترحمه) هذه القطة وتبتعد عنه! وقد روى لي مرة أنه رجع إلى بيته ذات ليلة متأخراً قبل أن يتزوج فوجد قطاً رابضاً أمام باب مسكنه فتحير صديقي كيف يدخل شقته وهذا (الوحش) الضاري يسد عليه الطريق؟.. وخيل إليه أنه لو تقدم إلى الأمام خطوة لاستنفره للهجوم عليه، ولو تراجع عنه إلى الوراء خطوة لأغراه بمطاردته واللحاق به فهداه عقل الخائف إلى أن أفضل ما يفعل هو أن (يثبت) في موقعه بلا أي حركة، معلناً بذلك نواياه السليمة تجاهه، إلى أن تتدخل السماء للفصل بينهما، فترى كم من الوقت ظل صديقي (محنطاً) في موقعه أمام هذا القط البليد الذي لم يحرك ساكناً؟ نصف ساعة كاملة مضت وصديقي واقف في هدوء تام وبلا ملل، والقط رابض في مكانه آمناً مطمئناً، وقد حاول صديقي خلال هذه الفترة مرة واحدة أن يستجمع شجاعته ويتسلل في حذر من جوار القط إلى باب الشقة.. فما أن هم بالحركة حتى استشعر القط الخطر، فزام زومة مخيفة.. وانتصب ظهره، واتسعت حدقتا عينيه.. وكان ذلك كافياً تماماً لأن يبث الرعب في قلب صديقي المصارع ويعبده إلى موقف الثبات في موقعه يائساً من المحاولة وظل موقف اللاسلم واللاحرب هذا قائماً ثلاثين دقيقة كاملة وانتهى نهاية مضحكة حين أرسلت العناية الإلهية جاراً لصديقي صعد السلم عائداً إلى بيته ورأى (الموقف) وكان يعرف عن جاره حكاية هلعه من القطط فضرب القط بالصحيفة التي يحملها في يده ببساطة وهرول القط خائفاً ومبتعداً وقال الجار لصديقي وهو يبتسم: تفضل يا أستاذ فلان!

أما صديقي الآخر فهو نموذج أكثر غرابة لتناقضات الإنسان وأحواله العجيبة، فهو إنسان مغامر بكل ما تعنيه الكلمة من جرأة.. وإقدام وسوء تقدير العواقب.. ولقد شهدت حياته أهوالاً عجيبة فشارك في صباه في أعمال المقاومة ضد الإنجليز في منطقة القناة قبل جلاء القوات البريطانية عن مصر، وشارك في شبابه في أعمال المقاومة الفلسطينية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وسجن في أكثر من دولة عربية لمشاركته في نشاطات المعارضة السياسية بها، حتى تندر عليه أحد أصدقائه وقال عنه إنه (ضُرب في كل الدول العربية)، كما تضرب العملة! ورغم ذلك كله فلقد سافرت معه ضمن وفد صحفي من نقابة الصحفيين إلى رومانيا عام 1972، وكانت الطائرة الرومانية صغيرة

وقديمة فكثر وقوعها في المطبات الـهـوائـيـة خـلال الرحلة وكـثـرت إضـاءة لـوحـة ربط الأحـزمـة ومنع التدخين، فإذا بي أسمع من جواري صوتاً غريباً كالتكتكة أحتار في تفسيره وأتلفت حولي لأبحث عن مصدره، فأرى صديقي المغامر الجالس إلى جواري تصطك أسنانه في رعب، ووجهه أبيض بياض الموت.. والعرق يسيل على وجهه بغزارة.. وعيناه مغمضتان كأنه في شبـه غـيـبـوبة، وأفزع لما أرى.. وأسأله عما به فلا يستطيع أن يجيبني لأنه مشغول بالتمتمة بآيات القرآن الكريم، ولأن اصطكاك أسنانه يحول بينه وبين الكلام.. ويظل على هذا الحال حتى تجتـاز الطائرة منطقة المطبات الهوائية، ويطفئ قائدها لوحة ربط الأحزمة..

ثم يتكرر المشهد بنفس تفاصيله مع منطقة المطبَات التالية.. فأعرف منه أن (المغامر)، الذي قضى نصف عمره متنقلاً بالطائرات من مكان إلى مكان.. لا يخشى شيئاً في الحياة كما يخشى المطبات الهوائية وإضاءة لوحة ربط الأحزمة خلال رحلة الطائرة!

وليس هذان الصديقان نموذجين فريدين وحدهما في تناقضات الإنسان.. ومخاوفه وهواجسه غير المفهومة. فالفيلسوف الألماني المتشائم شوبنهاور الذي عرف بجرأته الفكرية واحتماله لحياة الوحدة الكاملة حتى نهاية العمر منصرفاً للقراءة والكتابة والإنتاج الفكري.. لم يكن يخشى سلطان الموروثات الفكرية على العقـول والأفكار ولا مصادمة الآراء السائدة بما يخالفها من أفكار جريئة جديدة، لكنه كان يخاف حتى الموت من شيء آخر عجيب هو أمواس الحلاقة، فلا يأمن أن يسلم ذقته لأي حـلاق (سـفـاح)، لكي يمرر الموس على وجهه ورقبته، ويفضل أن يقص شعر ذقته بالمقص فنظل (نابتـة) باستمرار ومغطاة بالشعر الخفيف لأن هذا يهدئ من روعه ويعفيه من معاناة الرعب و (السفاح) يشهر في وجهه مُوسَ الحلاقة!

أما الموسيقار البولندي العبقري شوبان فقد كان يساوره الخوف دائماً من أن يـصـاب بالإغـمـاء أو الغـيـبـوبـة فـيخطئ من حـولـه تقـدير (الموقف)، ويظنونـه قد مات ويبدأون في مراسم الجنازة ثم يدفنونه في مثواه الأخير فيفيق هو بعد قليل من غيبوبته ويجد نفسه حبيساً داخل صندوق مغلق ومظلم تحت الأرض فيصرخ ولا مجيب.. ويستغيث ولا ينقذه أحد، ولهـذا فـقـد كـان يـلـح دائماً على أهله وأصدقائه بألا يتعجلوا (الأمور) إذا بدا لهم أنه مات.. وأن يتأكدوا أولاً من أنه ليس في غيبوبة مؤقتة!

ويبدو أن هذه المخاوف نفسها هي التي كانت تساور أيضاً داهية العرب عمرو بن بن العاص، الذي عرف بسعة الحيلة وشدة المكر والدهاء، فلقد أوصى أبناءه إذا مات بألا يتعجلوا الانصراف عن قبره بعد دفنه، وبأن يبـقـوا إلى جواره (مـقـدار ذبح جزور وتفصيله)، أي مقدار الوقت الذي يستغرقه ذبح جمل وسلخه وتقطيعه، لعل وعسى أن تعاوده الروح فيستغيث بهم لإخراجه من تحت التراب!

أما الموسيقار الراحل عبد الوهاب فلقد كان يخاف خوفا مرضيا من المرض والعدوى.. ولا يصافح مريضاً.. ولا يجلس في مكان به تيار هواء، ويضع في بيته آنية بها مطهر يغمس فيها يديه كلما اضطر لمصافحة ضيف أو زائر كما ظل سنوات طويلة يخشى ركوب الطائرات ويفضل السفر بالباخرة مهما استغرق ذلك من وقت، وكان يبرر خوفه من السفر بالطائرات بأنه لا يجد أي معنى لأن يقضي وقت السفر الطويل سجيناً في مقعد ضيق لا يجد ما يفعله، أو يسليه سوى الحملقة في (قنا) من يجلس أمامه، في حين أن السفر بالباخرة يتيح له حرية الحركة والنوم في فراش مريح والتجول فوق ظهر الباخرة والتمتع بمنظر أفق البحر!

أما ملك فرنسا هنري الثالث (1551 - 1589) الذي كانت فترة حكمه سلسلة حروب دينية شبه متصلة، فلم يكن يخشى ما تسببه له هذه الحروب من قلاقل وعدم استقرار، بقدر ما كان يخشى شيئاً آخر عجيباً هو رؤية البيض بكل أنواعه.. ويصرخ فيمن حوله إذا رأى عدة بيضات لكي يخفونها عن ناظريه في أسرع وقت ممكن!

أما الأديب الشاعر الراحل كامل الشناوي فقد كان يخاف من الليل والظلام ويبحث كل ليلة عمن يسهر معه إلى أن يتبدد الظلام ويشقشق نور الفجر، ليستطيع أن ينام مطمئنا إلى أن الموت لن يزوره في غبشة الظلام والوحدة!

أما الأديب الكبير أنيس منصور فلا يخاف من شيء أكثر من أن يعطس إنسان في وجوده، لأن هذه العطسة الإجرامية إنذار شرير له باحتمال انتقال عدوى الأنفلونزا والزكام إليه وهي تكفي وحدها لأن يختفي كلمح البصر من المكان الذي ارتكب فيه أحد هذه الجريمة أمامه!

وهكذا كل إنسان تقريباً له من مخاوفه وهواجسه الطبيعية وغير الطبيعية ما يشغله ويبدد بعض أمانه واطمئنانه، والإنسان بصفة عامة يخاف من أشياء كثيرة.. فهو يخاف من المرض والموت والعجز والفقر والتعاسة.. وفقد الأعزاء والأحباء، ويخاف من الفشل وفقد المكانة الاجتماعية، وفقد الحب، ومن الوحدة، ومن هوان الشأن، ومن التعرض للأذى.. والتعرض للإهانة.. إلخ.

ولا حد لمخاوف الإنسان ولا لهواجسه، لكن هناك فارقاً مهماً بين المخاوف الطبيعية التي لا يخلو منها أي إنسان، وبين المخاوف غير الطبيعية وغير المبررة التي يعاني منها البعض كما في معظم النماذج التي حدثتك عنها.

فالخوف إحساس إنساني طبيعي لا يخلو منه إنسان سوى، بل إنه في بعض الأحيان يكون دليلاً على اتزان الشخصية والنضج العقلي للإنسان، لأن من لا يخاف الخطر الحقيقي، لا يستنفر قواه العقلية والنفسية لمواجهته أو لتفاديه، تماماً كالطفل الصغير الذي لا يستشعر خطر لمس أسلاك الكهرباء أو الاقتراب من النار، في حين يستشعر الإنسان الناضج خطر ذلك ويتفاداه أو يحترس منه، فإذا خاف من الكهرباء والنار في هذه الحالة، فإن خوفه يكون دافعاً إيجابياً له على تفادي الخطر أو مواجهته بما يتطلبه من إجراءات مناسبة.

ومن يزعم أنه لا يخاف من شيء على الإطلاق فإنما ينكر على نفسه هذا الإحساس الصحي الذي يحتاج إليه الإنسان حين يتعرض لتهديد حقيقي.. ولقد أثبت العلماء أنه في ظل معاناة الإنسان لقدر معقول من الخوف يكون إنجازه أفضل منه في حالة عدم إحساسه بأي قدر من الخوف، وحين يتعرض الإنسان لاحتمال اصطدام سيارة به فإن الخوف هو الذي يمده بطاقة إضافية تعينه على الهرب من طريقها، أو اتخاذ القرار بتفاديها. ومن لا يشعر بالخوف من احتمال الفشل قد لا يجد في نفسه دافعاً قوياً لتفادي هذا الاحتمال.. يبذل الجهد اللازم لتحقيق النجاح، والإنسان حين يخاف من موقف طارئ يبدأ جهازه العصبي في تنبيه العضلات والغدد.. ويؤدي ذلك إلى تغيرات فورية في جسمه وهيئته فتتسع حدقتا العين لكي تعطى رؤية أفضل، وتزداد قوة ضربات القلب ليدفع كمية أكبر من الدم إلى العضلات والمخ استعدادا للتفكير والجري .. وهذا هو سر شحوب الوجه عند الخوف الشديد، كما يتسارع التنفس أيضاً، لأن هناك احتياج أكبر للأوكسجين ويزداد العرق لكي يبرد من حرارة العضلات، وتتوتر العضلات الصغيرة التي تشد الشعر، وهذا هو سر الربط بين الخوف الشديد وبين ما نسميه نحن (وقوف الشعر)!

لكن الخوف حالة مؤقتة تنتهي بنهاية الدوافع التي أثارتها والخوف المؤقت خوف طبيعي لا غبار عليه، ولا يعيب أي إنسان مهما كان قدره أو عمره.. أما إذا استمر الخوف إلى ما لا نهاية.. أو إذا كانت دوافعه غير منطقية أو مبررة، فإن هذا ما يسميه علماء النفس باسم (الفوبيا) - أي الخوف المرضي - وهي نوع من الخوف يرتبط بشيء ما أو موقف لا يشكل في حد ذاته سبباً للخوف لدى الشخص العادي.. بل ويعرف المريض بالخوف نفسه أن ذلك الشيء لا يسبب الخوف لكنه رغم ذلك يجد نفسه مضطراً لتجنبه تفادياً للخوف الشديد الذي يسيطر عليه منه

وهكذا فإن الفوبيا أو المخاوف المرضية المبررة تتسم دائماً بالاستمرارية والتواصل، وبأن من يعانيها يتحاشى دائماً ما يثير هذه المخاوف لديه فضلاً عن عدم معقولية الخوف بالنسبة للآخرين، بل وبالنسبة للمريض بها نفسه!

وأشهر هذه المخاوف المرضية التي يعانيها الإنسان بشكل مرضي أحياناً الخوف من الأماكن العالية، والخوف من الأماكن المغلقة، والخوف من الأماكن المفتوحة، ومن المرض، والألم والظلام، والزحام، والجراثيم، والحيوانات، والماء والعواصف والرعد والبرق.. إلخ.

وفي بعض الأحيان تتخذ هذه المخاوف شكل الوسواس كما أن كل هذه المخاوف تتخذ أيضا شكل (القهريات)؛ لأنها تقهر إرادة الإنسان الذي يعانيها وتجبره على الخوف منها والابتعاد عنها بالرغم من إدراكه لعدم معقولية الخوف منها.

غير أني أقول في النهاية إن الإيمان بالله والثقة به وبحسن اختياره لنا، وبأن أمر المؤمن - كما يقول لنا مضمون حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه - كله خير، إن أصابته نعمة شكر فكان خيراً له وإن أصابته مصيبة صبر، فكان

خيرا له، أقول لك إن هذا الإيمان يعيد إلى النفوس الكثير والكثير من طمأنينتها الهاربة.. ويبدد كثيراً من المخاوف والهواجس، ويعين الإنسان على التحكم في بعض مخاوفه وتحويلها إلى مخاوف إيجابية تدفعه لتفادي الأخطار.

كما أن هناك - إلى جانب ذلك كثيرين يتجنبون أشياء عديدة مختلفة بعضها ليس ضاراً في حد ذاته ولا مخيفاً لكنهم رغم ذلك يتجنبونها ويتحاشونها بدوافع مجهولة لهم، فلا يمنع ذلك من تواصلهم مع الحياة ولا يؤثر على حياتهم بالضرر ولا يعرضهم للآثار المرضية للخوف المبالغ فيه كالصداع وآلام الظهر والإحساس بالدوخة ومتاعب المعدة، فإذا كان الأمر كذلك، فلا مانع يا صديقي من أن تخاف من بعض الأشياء التي لا تخيف غيرك ما دام ذلك لا يؤثر على حياتك ولا يشل إرادتك عن التصرف إزاءها.. ولا يعرضك لأعراض الخوف المرضية كالرعشة وتسارع دقات القلب والتنفس وآلام المعدة، ولا يمنعك من التواصل مع الحياة وتحقيق أهدافك فيها..

فلا تخف من خوفك إذا كان في حدود رد الفعل الطبيعي للأخطار الحقيقية أو المحتملة.. أو إذا كان لا يعوق قدراتك على العمل والتفكير والتواصل مع الحياة.. ولا تخجل منه أيضاً فعظماء كثيرون خافوا قبلك من أشياء عجيبة ومضحكة كما رويت لك.. ولم يمنعهم خوفهم من أن يبدعوا وينتجوا ويضيفوا الجديد والمفيد إلى الحياة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيون العظماء!

إنضم إلى مجموعة (العظماء، الذين يراقبونني) وأنا أكتب لك هذا المقال ضيف جديد!.. فبعد طول انتظار حمل إليّ صديقي المقيم في فينا ما طلبته منه منذ شهور.. وهو (رأس) الموسيقار النمسوي جوهان شتراوس الإبن مؤلف فالس (الدانوب الأزرق) الشهير وغيره من الروائع الموسيقية.

فمن هواياتي السرية التي أستمتع بها.. أن أقتني (رؤوس) المفكرين والفلاسفة وكبار الأدباء الذين أثروا الحياة بإبداع عقولهم، فكأنما أريد كلما نظرت إليها أن أستلهم الإبداع منها.. أو كأنما أتعجب صامتاً حين أتأملها كيف أخرجت هذه الرؤوس (البرونزية).. (والرخامية.. و (الحجرية) كل هذا الإبداع الذي مازلنا نستمتع به حتى الآن ومازال يضيء الحياة ويسهم في تجميلها!

ومع أن المسألة ليست (بالحجم)، كما أثبت ذلك تشريح مخ العالم العبقري ألبرت اينشتاين الذي تبرع بمخه، للأغراض العلمية بعد وفاته.. فإذا بالأطباء يجدون هذا المخ العبقري أصغر من الحجم الطبيعي، فإنني كثيراً ما تخيلت (رؤوس) هؤلاء العباقرة بحجم عبقرياتهم وإضافاتهم للإنسانية فأتخيل رأس سقراط مثلاً في حجم المنطاد الكبير، ورأس أرسطو في حجم عمارة الإيموبيليا.. ورأس بيتهوفن في حجم جبل المقطم وهكذا!

وبسبب هذه الهواية السرية كثيراً ما أنفقت وقتا طويلاً خلال رحلاتي الخارجية في البحث عن هذه الرؤوس والتنقل وراءها من متجر عاديّات إلى متجر، فإذا فشلت في الحصول على بغيتي اعتمدت على أصدقائي المقيمين في الخارج في تلبية مطلبي الذي يعيدني أحياناً إلى أجواء دسائس القصور في التاريخ القديم حين أقول لأحد هؤلاء الأصدقاء: إئتني برأس فلان!

فلا يتصورني والحمد لله أميراً من أمراء المماليك يطلب رأس أحد خصومه ويتوقع منه أن يقدمه إليه على سنان سيفه، وإنما يتفهم هوايتي المتعبة هذه بسماحة ويعدني بالبحث عنها إلى أن يجدها، ثم يحملها إليّ في أول زيارة.

وهكذا تجمعت لديّ في غرفة مكتبي بالبيت مجموعة ثمينة من رؤوس المفكرين والمبدعين.. وانضم إليهم منذ أيام جوهان شتراوس الابن فذكرني من جديد بأنه لا شيء يحول بين الموهبة وبين انفجارها وتعبيرها عن نفسها، فلقد كان أكبر أبناء جوهان شتراوس الأب وهو موسيقي نمساوي شهير أيضاً، له أكثر من 150 مقطوعة من مقطوعات الفالس، وقد أراد لأبنائه ألا يعانوا عذاب الإبداع الموسيقي مثله وكره لهم أن يحترفوا الموسيقى، فتعلمها ابنه الأكبر خفية وعينه أبوه كاتباً بأحد المصارف ليبعده عن طريق الفن الشائك ففوجئ به ذات يوم يقود فرقة موسيقية صغيرة، ويعزف الكمان ببراعة مذهلة.. فسلم له بما أراد كارهاً.. واحترف جوهان الابن الموسيقى ومعه شقيقان آخران، وتولى قيادة فرقة أبيه بعد وفاته!

أما أن هؤلاء العظماء (يراقبونني)، وأنا أكتب لك هذا المقال فهذه حقيقة، أحس بها في أعماقي راجياً ألا تظن بعقلي الظنون.. فهم - أو أكثرهم - يتجمعون فوق رف مكتبة تقع إلى يسار مكتبي، وكثيراً ما استغرق في الكتابة.. ثم أضيق بإجهادها الذهني والنفسي لي وأتوق إلى وضع القلم والاستسلام لمتعة مشاهدة التليفزيون.. أو القراءة الخفيفة التي تروح عن النفس ولا تجهد الذهن.. وأهم بأن أفعل ذلك فأرفع رأسي عن الأوراق عرضاً.. وأرى عيون هؤلاء العظماء تنظر إليّ في لوم صامت وسخرية مكتومة.. فيخيل إليّ أنها تقول بغير كلام:

- أتريد أن تكون كاتباً بغير أن تتجشم العناء.. وتقضي الساعات الطويلة منحنياً على الأوراق.. باحثاً عن الأفكار.. كما فعلنا نحن لسنوات طوال طوال؟

فأشعر ببعض الخجل من نفسي.. ويشتد حرجي حين أحس بأن الموسيقار العبقري موزار أو موتسارت (1756 -1790) على الخصوص يكاد يتجاوز نظرة الإستنكار إلى ما هو أكثر منها، وأتذكر أنه لم يعرف طعم الراحة طوال عمره القصير الذي لم يطل عن 34 عاماً، وأنه قد عانى عذاب الإبداع مبكراً، فكتب أول سيمفونية له وهو في الثامنة من عمره وأول أوبرا له وهو في الحادية عشرة وأنه قد خلف وراءه 41 سيمفونية وعشرات الأوبرات والكونشيرتات وسيطر بموسيقاه على روح القرن الثامن عشر في أوروبا، وعلى الرغم من غزارة إنتاجه فقد عاش حياة جافة متقشفة غارقاً في الديون حتى اللحظة الأخيرة!

وليس موزار وحده هو الذي يطل عليّ من فوق رف المكتبة ويلاحقني بنظراته اللائمة أو الساخرة كلما تراخيت في عملي أو مالت نفسي لاتباع هواها في الراحة والدعة! فهناك أيضا لودفيج بيتهوفن (1770 - 1827) وهو لا يطل عليّ من وضع الجلوس المريح، بل من الوضع واقفاً كأنما يقول لي إنه لم يعرف الراحة حياً أو ميتاً.. فلماذا أريدها لنفسي؟ والحق أنه العبقري الوحيد الذي يقف فوق رف المكتبة بين باقي العظماء الجالسين عليها، وهو يخالف بذلك القاعدة العجيبة التي وضعها الفيلسوف الألماني المتشائم شوبنهاور، حين قال: إن القادة العسكريين والزعماء ينبغي أن يخلدوا بتماثيل كاملة لأنهم يخدمون الحياة بأجسامهم كلها.. أما المفكرون والمبدعون فينبغي تخليدهم بتماثيل نصفية لأنهم يخدمون الحياة برءوسهم فقط! ومع اختلافي مع هذه القاعدة، حيث أرى أن الجميع يخدمون الحياة برؤوسهم وليس بأجسامهم، إلا أنني أحب التماثيل النصفية أكثر من التماثيل الكاملة وأتغاضى عن هذا الاستثناء من بيتهوفن وحده، لأنه هو أيضاً استثناء من كل شيء، فلقد تفجرت عبقريته وهو صبي صغير وتوالت مؤلفاته حتى بلغ أوج شهرته وهو في العشرين من عمره، وبدلاً من أن يستمتع بالنجاح والشهرة بدأت تظهر عليه أعراض الصمم في أواخر العشرينيات من عمره، وانكسر قلبه في عدة تجارب عاطفية كانت نهايتها كلها شديدة الإيلام له، وفي الأربعين من عمره أصيب بالصمم التام، فانسحب من الحياة الاجتماعية وتوقف عن الذهاب للحفلات الموسيقية.

ومن عجب أن تكون أعماله الموسيقية التي أبدعها وهو أصم لا يسمع حتى دق الطبول المدوي، من أعظم وأروع ثمار عبقريته! ومات بيتهوفن عن 57 عاماً، و 9 سيمفونيات بينها السيمفونية الثالثة التي كان قد ألفها تمجيداً لنابليون حين بزغ نجمه في فرنسا، وأسماها بونابرت، ثم شطب اسمه من عليها وسماها (البطولة) حين نصب نابليون نفسه امبراطور للفرنسيين وتنكر للمبادئ الجمهورية، فضلاً عن 32 سوناتا وخمسة كونشيرتات ومجموعة كبيرة من المقطوعات الوترية.

فكيف يقبل مني مثل هذا (الرجل)، أي عذر بالتعب أو الإجهاد أو الملل؟

هناك كذلك صاحب هذا الوجه المحدد التقاطيع الذي يحيط بجبهته إكليل من الغار على النمط الروماني القديم وهو شاعر الإيطالية الأعظم دانتي الليجيري، وقد اشتريته - عفواً لهذا التعبير - من إحدى الأسواق المتنقلة التي تقام فوق الأرصفة مرتين كل أسبوع بكل حي من أحياء باريس وتعرف باسم (المارشيه).. وقد تجولت في (المارشية) الذي عثرت فيه على هذه الرأس الغالية مع صديق لي كان يرغب في شراء بعض أدوات المائدة.. وتوقفنا أمام مائدة عليها بعض هذه الأدوات فإذا بي أرى وجه دانتي الرخامي الجميل.. ينظر في الفضاء في تأمل فلم أتردد في اقتناصه.

وجاء دانتي ليحتل مكانه بين عظماء المكتبة ويذكرني كل حين بروائعه الشعرية وأعظمها بغير جدال هي (الكوميديا الإلهية)، وقد صاغها في ثلاثة أجزاء وقدم فيها رحلة خيالية إلى العالم الآخر صحبنا معه فيها إلى (الجحيم)، الذي رتبه منازل تجمع بين كل الخطاة والأشرار، ثم الى (المطهر) حيث يتطهر من لا تخلدهم خطاياهم في الجحيم، ثم إلى (الفردوس) حيث ينعم الأبرار والصالحون بالنعيم. ومنذ قرأت هذه الكوميديا الإلهية وأنا مفتون بها وبه ومازالت بعض مقاطعها البليغة ترن في أذني:

المجد لا ينال في الفراش أو تحت الأغطية.. وقوة الروح تظفر في كل معركة!

ذهب الدنيا كله لا يستطيع أن يريح نفسا من عذاب الطمع!

ليس هناك أضل ممن يأخذه الأسى أمام قضاء الله!

وغير ذلك كثير وكثير.. ومن أكثر ما أعجبني في هذه الملحمة الشعرية أن دانتي قد اختار أعمق منازل الجحيم لمن يخونون من أحسن إليهم أو يتنكرون له، وأيضاً لخونة الأصدقاء الذين وثقوا بهم، ورمز هؤلاء عنده هم إبليس، ويهوذا خائن السيد المسيح عليه السلام، وبروتوس خائن صديقه يوليوس قيصر، وهؤلاء عند دانتي نفاية البشر!

أما صاحب هاتين العينين الجريئتين والملامح المتسائلة على الدوام فهو صديقي القديم سقراط أبو الفلاسفة، وقد جئت به من أثينا وتعجبت ومازلت أتعجب كلما نظرت إليه.. كيف وصفه المؤرخون بأنه كان قبيح المنظر.. دميم الخلقة.. كبير الأنف واسع الفم.. رث الثياب بارز العينين!

فالحق أنني لا أرى في وجهه من هذه الملامح سوى بروز العينين وأرى ذلك متوافقاً مع الدور الذي هيأته له الأقدار وهو (التطلع) الدائم إلى الحقيقة ومحاولة الوصول إليها، ولقد كانت وسيلته لذلك هي التماسها لدى كل من يقابله في الأسواق وفي الطريق بطرح الأسئلة المتوالية عن (الما).. ما الإنسان.. ما الخير.. ما الفضيلة.. إلخ..

وكلما رأيت عيني سقراط المقتحمتين ابتسمت باطنياً وتذكرت طريقته المفضلة في كشف جهل الجاهلين، فلقد كان يؤمن بأنه هو والآخرون جميعاً لا يعرفون شيئاً عن حقيقة ما يتشدقون به من ألفاظ، لكنه يتميز عنهم بشيء جوهري هو أنه (يعرف)، أنه لا يعرف شيئاً، في حين لا يعرف الآخرون أنهم جهلاء مثله! وكانت طريقته لكشف جهل الآخرين هي أن يستدرجهم بإطراء معارفهم وحكمتهم لإيضاح ما يتحدثون عنه من نقاط يراها غامضة على فهمه البسيط، ثم ينهال عليهم بأسئلته المحرجة بلباقة ومهارة. حتى يعترفوا جميعا بجهلهم!

أما صاحب هذا الوجه الحالم الذي تكسوه مسحة خفيفة من الأسى الدائم فهو عبقري الأدب الروسي أنطون تشيكوف..

ولابد أن تكون مسحة الأسى هذه استمرارا لطفولته التعيسة التي قال عنها وهو في أوج مجده: في طفولتي لم تكن لي طفولة!

وهذا صحيح بالفعل فقد كان يعمل في حانوت أبيه من الصباح الباكر حتى السادسة مساء ويتعرض لعقابه البدني القاسي كثيراً.. وكان أبوه يلزمه ويلزم أخوته إلى جانب العمل بالحانوت والتفوق في الدراسة بتعلم بعض الحرف، وبعد أن أنهي تشيكوف دراسة الطب وعمل طبيباً ونشر روائعه القصصية وقدمت المسارح مسرحياته الشهيرة، قال ذات يوم لمدير مسرح معروف: كانت طفولتي خالية من العطف إلى حد أنني مازلت أنظر إلى العطف حتى الآن وكأنه شيء لم تكن لي به سابق خبرة!

وقال له أيضاً: لم أغفر لأبي حتى الآن جلده لي كثيراً وأنا طفل صغير!

ورغم إنكار تشيكوف للعطف الذي لم يجربه فلقد فاضت نفسه الخيرة عطفاً على النوع الإنساني كله وفهماً للطبيعة البشرية وصورت قصصه القصيرة أدق وأخفى أسرار النفس، ثم مات مصدوراً وهو في الرابعة والأربعين فقط من عمره عام 1904 وبقيت قصصه القصيرة الرائعة.. تقدم لكل من يقرأها شيئين أساسيين: المتعة.. والحزن!

وأما صاحب هذا الوجه المريح الذي تبدو ملامحه مرتبة كأنما تشي بعقله المرتب أيضاً، فهو المعلم الأول.. أرسطو، وقد سمي بذلك لأنه أول من علم المنطق ولم يكن قبله علماً، وقد ولد بمقدونيا سنة 384 قبل الميلاد وتتلمذ على يد أفلاطون الذي يراقبني، هو الآخر الآن من فوق قطعة أخرى من أثاث الغرفة،، وعمل أرسطو مؤدباً للإسكندر الأكبر لمدة ثلاث سنوات، وكاد يلحق بمصير سقراط حين اتهمه الأثينيون بالإلحاد ففر من أثينا قائلاً: لن أسمح لأثينا بأن

ترتكب خطيئة أخرى ضد الفلسفة، ومات في منفاه بعد شهور قليلة، 62 عاما، بعد أن كتب 170 كتاباً لم يحفظ لنا التاريخ منها سوى 47 كتاباً، وبعد أن أسس علم المنطق وكتب في الفلك وعلم الحياة والأجنة والجغرافيا والجيولوجيا والفيزياء والتشريح والشعر والسياسة والأخلاق.. وكان أثره على الحضارة الغربية والشرقية عظيماً، وبالرغم من أنه قد أصاب كثيراً، فلقد أخطأ كثيراً أيضاً.. ومن أطرف أخطائه أنه كان يعتقد أن أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل وكتب ذلك في مؤلفاته، وبعد قرون طويلة قال الفيلسوف البريطاني برتراند رسل إن أرسطو كان يستطيع أن يتجنب هذا الخطأ الفاضح لو كان قد طلب من (مدام أرسطو) أن تفتح فمها ثم قام بعد أسنانها!

يا إلهي .. انتهت المساحة ولم أحدثك بعد عن باقي العظماء الذين يحاصرونني من كل جانب في مكتبي بالبيت. كما لم أحدثك كذلك عن أمنيتي المكتومة لو كانت هناك رؤوس أخرى متاحة لعظماء آخرين من الشرق العربي، لكي أضم إلى مجموعتي رؤوس أشخاص من نوع عمر بن عبد العزيز.. والإمام أبي حنيفة النعمان، والإمام ابن حزم الأندلسي، والإمام أبي حامد الغزالي.. والإمام محمد عبده.. والبيروني العظيم.. وابن سينا.. والإمام الليث بن سعد.. والمتنبي ملك الشعراء العرب.. وغيرهم.. فوا أسفاه على افتقادي لمثل هذه الرؤوس العبقرية الملهمة إلى جواري.. وأسفاه على ما أضعته من وقتك بمثل هذا الحديث!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف تأكل البطاطس وتصبح أديباً عظيماً؟!

ليست البطاطس في حد ذاتها هي التي يمكن أن تصنع من إنسان أديباً عظيماً أو عالماً شهيراً.. أو رجل أعمال ناجحاً، لكنه الرمز الذي ترمز إليه من القدرة على الكفاح وقوة الإرادة وتحمل جفاف الحياة خلال صعوبات البداية! فكثيرون قد أكلوا البطاطس ومازالوا يأكلونها كل يوم بغير أن يصبحوا أدباء كباراً كهذا الروائي الأمريكي أرسكين كالدويل لأنها لا ترتبط لديهم بهدف يسعون إليه.. ويتحملون عناء الحياة من أجله.. أما هو فلقد عاش سنوات يزرع البطاطس في الأرض المحيطة بالبيت الحجري الذي استأجره في مقاطعة أمريكية قليلة السكان، ويأكلها وحدها بلا إدام.. ويكتب طوال الليل في غرفة باردة تتجمد فيها أصابعه وهو يدق بها على الآلة الكاتبة.. ويرسل القصة وراء القصة إلى المجلات الأدبية.. فتعيدها إليه ملصقاً عليها بطاقة رفض مطبوعة حتى تجمعت لديه من هذه البطاقات مجموعة كبيرة احتفظ بها في ألبوم ضخم كألبوم الطوابع! ومع هذا فلم ييأس ولم يتوقف عن الكتابة.. بل ولم يندم على قراره المصيري الذي اتخذه وهو في الثانية والعشرين من عمره بالاستقالة من وظيفته كمحرر صحفي بجريدة محلية يتقاضى أجراً مضموناً ليتفرغ لكتابة القصة، وليس في جيبه سوى بضع دولارات يشتري بها الورق وبذور البطاطس وطوابع البريد لإرسال القصص للمجلات، فسيطول انتظاره سنوات وسنوات.. وتصاب أصابعه بقرح البرد ويفقد عشرين كيلو جراماً من وزنه فلا يثنيه كل ذلك عن مواصلة المشوار.

لكن البدايات قد تشير في بعض الأحيان إلى النهايات.. والمؤكد أن بدايات هذا الروائي الأمريكي المعاصر كانت توحي بقوة الإرادة والقدرة على الكفاح والصبر على تحقيق الأهداف، فخلال دراسته بالمرحلة الثانوية، قرر الفتى أرسكين وهو يعيش مع أبيه القس الفقير أن يحصل على بعض الدخل الإضافي ليعينه على مطالبه ولم يجد هذا العمل سوى في وردية الليل بمعصره للزيوت، فعمل بها سراً بغير علم والديه وراح يدخل فراشه مساء كل يوم وينتظر حتى يستغرق أبواه في النوم ثم يتسلل إلى المعصرة البعيدة ليقضي الليل كله في العمل بها مقابل دولار واحد، ويرجع في الصباح الباكر ليدخل فراشه فلا تمضي ساعة حتى توقظه أمه للذهاب للمدرسة، وفي هذا العمل الشاق استمر بضعة أسابيع حتى انكشفت أمره حين غلبه النوم على مائدة الإفطار ذات يوم فمنعه أبوه من العمل رحمة بصحته.. وانتهت تجربة العمل الأولى في حياته لكنها تركت في حياته أثراً شديد الأهمية، فلقد اشترى بمدخراته من هذا العمل آلة كاتبة مستعملة قدر له أن يرتبط بها مصيره بعد ذلك لسنوات طويلة وبدأ يستخدمها في كتابة القصص الإخبارية التي يبعث بها للصحف المحلية ثم أنهى دراسته الثانوية والتحق بالجامعة في مدينة أخرى فحمل معه هذه الآلة المستعملة وواصل هوايته في كتابة الصور الأدبية ونشرها بمجلة الجامعة، ثم هجر دراسته

الجامعية قبل التخرج وعمل بصحيفة محلية في ولاية أطلانطا، وحقق في عمله الجديد نجاحاً طيباً ارتفع معه أجره الأسبوعي واستقرت أحواله المادية.. لكن شيئاً ما في داخله كان يتطلع إلى ما هو أكثر من العمل الصحفي العادي.. فراح يكتب القصص القصيرة ويرسل بها إلى المجلات الأدبية، وقبلت إحدى الصحف أن يقوم بكتابة تعليقات قصيرة على الكتب الجديدة بلا أجر مقابل احتفاظه بما ترسله من هذه الكتب.

وبعد عام واحد من عمله بهذه الصحيفة وجد لديه حوالي ألفي كتاب جديد، وأربعين أو خمسين قصة قصيرة أرسلها للمجلات الأدبية ورفضتها ومائتي دولار وفرها من أجره فأقدم على أخطر خطوة في حياته وهي أن يستقيل من عمله الصحفي ويتفرغ لتحقيق هدف محدد هو أن يصبح كاتباً محترفاً، واعداً نفسه كما قال في مذكراته الأدبية بعنوان (كيف أصبحت كاتباً روائياً)، ألا يعمل بأية وظيفة أخرى إلا مضطراً ولفترة مؤقتة حتى يحمي نفسه من الجوع والضياع إلى أن يرجع للتفرغ للأدب من جديد، وحدد لنفسه فترة خمس سنوات لتحقيق أمله في أن يصبح كاتباً معروفاً تدفع له الصحف أجراً مقابل ما ينشره فيها من قصص..

لكن كيف يعيش خلال هذه السنوات الخمس وهو شاب فقير ولا تستطيع أسرته إعالته؟

لا يعرف على وجه التحديد، ويعترف بذلك صراحة في مذكراته.

لكن الشاب الطموح قرر أن ينتقل إلى مكان بعيد يتفرغ فيه للكتابة واختار على الخريطة مدينة صغيرة اسمها فيرنون بولاية مين الأمريكية واستأجر فيها بيتاً حجرياً لمدة عام دفع إيجاره مائة دولار مقدماً ثم شحن كتبه في صناديق كبيرة عن طريق النهر وركب القطار إليها وكان البيت الذي استأجره بيتاً قديماً جميلاً كبيت صيفي، أما خلال الشتاء الطويل فقد كانت الإقامة به محنة قاسية، وكان أول درس تعلمه الساكن الجديد من أحد جيرانه هو أن يزرع على الفور بذور البطاطس في الأرض المحيطة ليجد ما يطعمه خلال الصيف، وأن يقطع - عدداً كبيراً من أشجار الغابة القريبة ليجد ما يكفيه من أخشاب للتدفئة طوال محنة الشتاء.

وبدأ الشاب العمل بحماس في الجبهات الثلاث، يزرع البطاطس ويقطع الأخشاب ويجلس في المساء أمام آلته الكاتبة حتى الفجر، لكنه فقد مخزونه من الخشب بأسرع مما توقع، وصور - حاله حينذاك قائلاً: (مع مجيء يناير كان معظم الخشب المخزون قد نفد وكان الثلج يرتفع في الخارج بضعة أقدام فأبقيت مدفأة المطبخ وحدها مشتعلة، ورحت أكتب في الليل في غرفة باردة بالطابق العلوي بلا مدفأة مرتدياً سويتر من الجلد فوق البيجامة وأنا ألف ساقي ببطانية وأنفخ في أصابعي المتجمدة من حين لآخر.. وأكتب من 10 إلى 12 ساعة كل ليلة)!

وواصل الشاب حياته على هذا النحو وكلما عجز عن احتمال البرد سافر إلى الجنوب طلباً للدفء وأقام في كوخ صغير زهيد الإيجار لبعض الوقت إلى أن

يتحسَّن الجو ويرجع إلى بيته الحجري ومع مجيء الصيف التالي كان قد تعلم الدرس، فبدأ يقطع كمية أكبر من الأخشاب وراح يعزق الأرض لإخراج ثمار البطاطس، وتوقف ليراجع نفسه فإذا به لم يكسب طوال هذا العام دولارا واحداً من الأدب، وكان كل ما كسبه من بيع الكتب التي يكتب التعليقات المجانية عليها فكان كلما نفدت نقوده ملأ حقيبة كبيرة بعدد منها ثم ذهب إلى المدينة ليبيعها ويشتري بثمنها الورق وطوابع البريد والخبز ويرجع لحياته المنعزلة.

وأخيراً وبعد عامين من التفرغ الكامل لكتابة القصة تلقى خطاباً من مجلة أدبية متخصصة تصدر من نيويورك اسمها (كارفان) تبلغه فيها بقبول أول قصة له للنشر مقابل 25 دولارا!

وسعد الشاب الأديب سعادة طاغية بهذا النبأ وبعد أن تخفف قليلاً من انفعاله به ملا حقيبة جلدية بما كتبه من قصص ومقالات وركب الأتوبيس إلى المدينة الصاخبة نيويورك وليس في جيبه سوى 12 دولارا.

وزار المجلة التي قبلت قصته، وعددا آخر من المجلات ودور النشر فقبلت إحداها نشر قصة أخرى طويلة له، ثم رجع إلى (فيرنون) بعد نفاد نقوده ليواصل أكل البطاطس وكتابة القصص وإرسالها للمجلات متعلقاً بأمل جديد! وقبل أن يفترسه الجوع والإجهاد والعمل الشاق كل ليلة أنقذته مجلة أدبية أخرى بقبول نشر قصتين وإرسال 350 دولار ثمناً لهما إليه، ثم قبلت مجلة (كارفان) نشر أول مجموعة قصصية له فبدأت معالم الطريق تتضح أمامه بعض الشيء وبدأ هو مرحلة جديدة من حياته راح يتنقل خلالها من مدينة إلى مدينة بحثاً عن تجربة إنسانية يسجلها في قصة جديدة، فيقيم في الفنادق الصغيرة الرخيصة ويكتب طوال الوقت ويعيش على الخبز والجبن، فإذا نفدت نقوده تماماً أخرج تذكرة العودة بالأتوبيس ورجع إلى البيت الحجري ينتظر بيع إحدى قصصه ليرجع إلى التجوال من جديد.

وصدرت مجموعته القصصية الأولى بعنوان (الأرض الأمريكية) فلم يحسن النقاد استقبالها.. وانهمك في البيت الحجري في كتابة رواية طويلة لأول مرة منقطعاً لها تماماً لمدة شهور، وراح يقسم يومه إلى ثلاث فترات محددة 8 ساعات للنوم، 8 ساعات للعمل اليدوي الشاق في جني البطاطس وزراعة البذور الجديدة وقطع الأخشاب و 8 ساعات للكتابة يومياً.

وصدرت خلال ذلك روايته الأولى (طريق التبغ)، فلم يرحب بها معظم النقاد لكنه لم يحرم إلى جانب ذلك من بعض التعليقات المتعاطفة معها وتعرف بوكيل أدبي تحمس لتسويق مؤلفاته فكتب رواية أخرى، وأصبح يرسل إليه قصصه القصيرة ليتعاقد هو مع المجلات على نشرها مقابل نسبة مئوية له، وبعد أربع سنوات من الانقطاع للكتابة الأدبية كان دخله السنوى من الأدب قد بلغ 700 دولار فدفع إيجار البيت الحجري لمدة عام آخر وبقى معه ما يكفي ليعول به نفسه وأبويه الذين لحقا به للإقامة معه في البيت وكتب عن ذلك يقول:

وتناولنا اللحم المشوي لأول مرة منذ سنة وتركنا نسبة كبيرة من البطاطس تتعفن في باطن الأرض ذلك الخريف وأملت أن يكون ما أكلته منها ومن اللفت الذي كنت أزرعه معها هو آخر ما أكله منهما في حياتي!

وتحقق (الأمل) بالفعل بعد ذلك.. وودع أرسكين كالدويل سنوات الجوع والبرد والحرمان بعد ست سنوات حافلة بالعناء وتوالى صدور كتبه ورواياته ومجموعاته القصصية، وقدمت له السينما الأمريكية عدداً من الأفلام الناجحة عن رواياته الشهيرة، كرواية (أرض الله الصغيرة)، وتحولت رواية (طريق التبغ) إلى مسرحية ناجحة في مسارح برودواي بنيويورك، وصدرت طبعات من كتبه في بريطانيا وترجمات لها في فرنسا.. وصدرت له أربع مجموعات قصصية وعدة كتب من أدب الرحلات لاقت رواجاً كبيراً في أمريكا وسافر إلى الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية فتهافتت الصحف الأمريكية والإنجليزية على نشر مقالاته عن (روسيا في الحرب) مقابل أجور سخية، ورجع إلى أمريكا فلاحقته شركة (وارنر) بإلحاح ليكتب لها (مسودة) قصة فيلم عن روسيا في الحرب، مقابل الإقامة الكاملة في جناح فاخر بفندق كبير ودفع أجر سكرتيرته أو مساعدته و 1200 دولار في الأسبوع طوال فترة العمل، واشترى الأديب الشهير بيتاً صيفياً فاخراً في ولاية أريزونا ذات الجو الحار، كأنما يريد الإمعان في البعد عن ذكريات البرد القارص في بيت فيرنون الحجري.

وأعيد طبع رواية (أرض الله الصغيرة) في طبعة شعبية فوزعت مليوني نسخة، وهي التي لم توزع في طبعتها الأولى سوى ثلاثة آلاف!

وأصبحت المجلات والصحف تتنافس على طلب القصص القصيرة من الأديب الكبير لنشرها فيتراوح أجره على نشر القصة الواحدة منها بين 500 و 1500 دولار، ومن عجب أن بعض ما نشر منها كان من بين القصص التي كتبها في بيت فيرنون الحجري البارد وهو يعيش على حساء البطاطس وأرسلها للمجلات الأدبية فأرجعتها إليه بالبريد تحمل بطاقة تقول: مرفوض لضعف المستوى!

وصدق حقاً من قال: إن أعظم الأعمال لا تتحقق بالرغبة وحدها وإنما بالمثابرة والدأب والاستمرار في بذل الجهد المخلص لتحقيقها، ولو تحمل الإنسان في سبيل ذلك.. البرد والحرمان ومرارة الرفض لفترة طويلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلى الأسامي!

ثلاثون عاماً أو أكثر ولم أنس بعد مطلع هذه المقطوعة الرقيقة من الشعر العاطفي الرقيق! قرأتها وأنا في شرخ الشباب في ديوان من الشعر اسمه (ليالي الهرم) للشاعر الغنائي الراحل صالح جودت، لعلي كنت قد اشتريته وقتها بعشرة قروش، فاستمتعت بقراءة كل أشعاره لكني أحببت هذه القصيدة بالذات وحفظت مطلعها وبعض أبياتها، واستقرت في ذاكرتي، أما ديوان الشعر نفسه فلقد اختفى فيما اختفى من كتبي الثمينة القديمة، وطوته يد النسيان أو يد السرقة والاختلاس إن شئت الحقيقة!

فأنا لا أفرط في كتبي بسهولة.. ولا أدعها للإهمال لكي أزعم أني قد افتقدت هذا الكتاب وغيره خلال انتقالي من مسكن إلى مسكن كما يقول بعض الكتاب في مذكراتهم. ومازال لدي حتى الآن كتب اشتريتها وعمري 15 عاماً ومازلت أحتفظ بها كما مازلت أحتفظ أيضاً بأول مكتبة خشبية صغيرة كلف أبي يرحمه الله نجاراً متواضعاً بأن يصنعها لي وعمري 16 عاماً لأحتفظ فيها بكتبي القيّمة.

وقد انتقلت من بلدتي الصغيرة دسوق إلى القاهرة لالتحق بالجامعة، وانتقلت معي هذه المكتبة الصغيرة التي لا تعدو أن تكون دولاباً صغيرا بأبواب من الزجاج وتنقلت بعد ذلك من مسكن إلى مسكن في القاهرة وهذه المكتبة الأثرية تصاحبني إلى حيث انتقل ولا أفرط فيها.. إذن فكيف فقدت هذا الكتاب وعشرات بل ومئات من الكتب المماثلة التي لا أستطيع تعويضها الآن؟

الحكاية أنني قد إبتليت بصداقة بعض (لصوص الكتب) منذ سن الصبا كما ابتليت فيما بعد في سن الشباب (بمعرفة) ولا أقول بصداقة البعض الآخر، وهؤلاء وهؤلاء كانوا يعرفون عنى جيداً كراهيتي للتفريط في أي كتاب أو إعارته لمن يريده.. فكانوا يختلسون مني هذه الكتب سراً ولا يعيدونها إليّ أبداً!

والآن وأنا أكتب هذا المقال وأسترجع في مخيلتي أسماء وعناوين وأغلفة بعض الكتب الثمينة التي فقدتها بهذه الطريقة، ألتمس بعض العذر للمهاجرين الأوائل إلى أمريكا الذين كانوا يفرضون عقوبة الشنق على فرع أقرب شجرة على لصوص الجياد، باعتبار أن الجياد كانت أثمن ما في حياة المهاجر الجديد لأنها وسيلة مواصلاته الأساسية.. (وسيارته)، التي يمتطيها لارتياد مجاهل الغرب الأمريكي، ولأن سرقتها تؤخر التعمير والتقدم وتهدد أمان المواطنين!

وأذكر من (لصوص الجياد) الثقافية هؤلاء صديقاً لي كان مهندساً وكان يقيم في تلك المرحلة من شبابنا في الصحراء ويأتي إلى القاهرة مرة كل شهر فيقيم معي في مسكني الذي أعيش به وحيداً، ونمضي أيام إجازته في أحاديث متصلة وسهر متواصل ومشاهدة مسرحيات المسرح القومي والأفلام (الحديثة) إلى أن يحين موعد عودته فينهض في الصباح الباكر وأنا مازلت مستغرقاً في نومي ويسافر إلى عمله.

وظللنا على هذا الحال بضعة أعوام نستمتع بأوقاتنا وبالصداقة الصافية خلال زياراته الدورية للقاهرة، وقد استرحت إلى أنه قد احترم منطقي بشأن رفض إعارة كتبي للآخرين وكف عن مطالبتي بذلك، وكان منطقي في ذلك ومازال هو أنني لا أرى مبرراً لأن يستعير الإنسان كتاباً من أحد وهو قادر مادياً على شرائه من أقرب مكتبة، وأننا ننفق الكثير على طعامنا وشرابنا ومقهانا ودور السينما والمسرح التي نرتادها، فلماذا نبخل إذن ببضعة قروش على شراء كتاب أعجبنا ونرغب في قراءته.

وقد سلَّم لي صديقي المهندس بهذا المنطق الذي طالما جادلت به أصدقائي هواة استعارة الكتب، ووافقني على رأيي بأن هذه الإعارة لا جدوى لها إلا فقدان الكتب أو إهمالها لدى من يستعيرها، لأن من يرغب حقاً في أن يتثقف لابد أن يتحمل تكاليف الثقافة مادام قادراً عليها، ولا يحق له أن يستعير كتب أحد غيره إلا إذا كان غير قادر مادياً على شرائها، أو إذا كان هذا الكتاب (نادراً) لا يتوفر في المكتبات. وقد سعدت كثيراً باقتناعه بمنطقي وكففنا عن الجدال والملاحاة حول هذا الشأن ،لكن كتبي رغم ذلك راحت تتناقص ويختفي بعضها بغير سبب مفهوم واتجهت بظنوني إلى بعض من يزورنني من الأصدقاء والمعارف وخصصت بها أحدهم وكان من أدعياء الاشتراكية وقتها بعد أن جادلني في (بورجوازيتي) الثقافية وإصراري على تمسكي بكتبي في حين أن فلاناً (اسم أجنبي مزيف بكل تأكيد وبنتهي بـ أوف) والذي زعم أنه لكاتب اشتراكي روسي كان بعد أن ينتهي من قراءة أي كتاب يركب سيارة الأتوبيس العامة ويتعمد أن يترك الكتاب وراءه على المقعد عند نزوله لكي يعثر عليه مواطن آخر و يراه ويتثقف؛ لأن (الثقافة للجميع)، وليست حكراً على أحد!

ولم أقتنع بالطبع بهذا المنطق الفاسد.. وجادلته فيه طويلاً وقلت له أننا في العادة نختار من (الشعارات) ما يخدم وجهة نظرنا وقد تؤلف لها الأقوال المساندة من وحي اللحظة، كما ألف هو لي قصة هذا الكاتب الاشتراكي الذي لا أشك في أنه لم يكن له وجود، وأنني حتى لو كنت مسؤولاً عن تثقيف (الجميع) فإني أدعو من يشاء إلى أن يقرأ ما يريد ولكن في بيتي لأضمن عدم ضياع الكتب، ولم يقتنع هو أيضاً بذلك وبعد انصرافه اكتشفت اختفاء الكتاب الذي أثار هذا النقاش كله حين رفضت إعارته له، وتأكدت من أنه قد طبق عليه نظريته الفاسدة في (شيوع الثقافة)!

وطلبت من صديقي الذي اصطحبه لزيارتي ألا يرجع به مرة أخرى! أما صديقي المهندس فقد راح كلما زارني يجدد دعوته لي لزيارته في مقر عمله بالصحراء حيث يعيش في بيت حكومي واسع ويقوم على خدمته بستاني وطباخ حكوميان ويعدني بقضاء بضعة أيام جميلة في هدوء الصحراء وشاعريتها، وحزمت أمري أخيراً وقررت زيارته مع صديق آخر لنا من أصدقاء الطفولة أيضا، وركبنا إليه في قلب الصحراء واستقبلنا صديقنا المهندس بمظاهرة ترحيب على باب البيت وقادنا على الفور إلى مائدة الغداء الحافلة وانشغلنا بالطعام وتبادل الذكريات الضاحكة بعض الوقت ثم انتقلنا إلى غرفة المعيشة لنشرب القهوة

فما أن دخلتها وتلفت حولي أتأمل مكتبته الصغيرة المعلقة على الحائط حتى استدرت إليه صارخا فيه: كتبي.. يا حرامي!

فلقد كان كل ما في مكتبته من كتبي الضائعة والمختفية والمفقودة مني بطريقة غامضة طوال 3 سنوات! ولم يكن في مكتبته كتاب واحد من مقتنياته الخاصة أو من مشترياته بحر ماله!

أليس هذا ما كان الاشتراكيون يسمونه (بنزح الثروات) الذي قام به الاستعمار الغربي حين نزح ثروات المستعمرات الأفريقية إلى بلاده؟ ألا يستحق ذلك الثورة والانفعال؟ لقد هممت بالانفعال فعلاً ففوجئت بالصديقين ينفجران في الضحك والصخب والصديق المذنب يقول لي ببساطة: ماذا أفعل وأنت لا ترضى بإعارتي الكتب وأنا لم أعتد شراءها؟ وفوجئت بالصديق الآخر يتشفع له في العفو بتقادم الجريمة وسقوط العقوبة! ولم أجد مفراً من مشاركتهما السخرية وأصبحت (السرقة الكبرى)، كما أطلقت عليها هي محور ضحكاتنا وتعليقاتنا نحن الثلاثة طوال اليومين اللذين أمضيتهما في ضيافته، وعند الرحيل جمعت من كتبي السليبة ما اتسعت له حقيبتي منها، وتركت له الباقي وأنا أتوعده بأنه سينسى كل ما قرأة في هذه الكتب المسروقة ولن يستفيد به شيئاً من الثقافة الحقيقية لأنها ثقافة من مصدر (حرام)!

وحرصت بعد ذلك حين يزورني ألا أدعه يسافر عائداً إلى عمله في الصباح الباكر وأنا نائم كما كان يفعل طوال السنوات الماضية رغم إعلانه (توبته) لي!

وسعدنا رغم ذلك بصداقتنا المخلصة وذكرياتنا المشتركة التي بدأت ونحن في المدرسة الابتدائية.

ولست أعرف هل كان ديوان (ليالي الهرم)، لصالح جودت من بين (سرقاته) الثقافية مني، أم كان من سرقات شخص آخر من لصوص الجياد هؤلاء لكني فقدت هذا الكتاب في أوائل الستينات ولم أعثر عليه أبداً بعد ذلك في المكتبات رغم بحثي عنه أكثر من مرة.

وهيهات حتى لو عثرت على طبعة حديثة له أن تعوضني عن طبعته الأولى فالكتب القديمة في طبعاتها الأولى كالنبيذ المعتق تزداد قيمتها كلما مضت عليها السنوات ومنذ أسابيع تحسرت بلا مناسبة على هذا الديوان الضائع خلال حديثي مع صديقة مثقفة وكاتبة للقصة القصيرة ورويت لها أنني مازلت أتذكر مطلع إحدى قصائده الجميلة الذي يقول فيه الشاعر:

ما اســـــمك بين الأســـامي

يـافـتـنـتـي يـا غـــــــرامـي

إن قـلـتِ أو لـم تـقـــولي

فـاسـمك أحلى الأسـامي!

ففوجئت بـهـا تقـول لي بأن لديهـا نسـخـة من هذا الديوان ضمن الأعمال الكاملة لصالح جودت، وتعدني بإهدائها لي! ورجعت بالفعل بعد أيام حاملة إليّ مجموعة أشعار صالح جودت في طبعة لبنانية صدرت عام 1982، وشكرتها بحرارة على هديتها الثمينة، وتصفحت الديوان بلهفة باحثاً عن القصيدة التي قرأتها وأحببتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ووجدتها في ديوان ليالي الهرم بعنوان: ما اسمك! واسترجعت كلماتها وأنغامها الشاعرية الرقيقة أو قل إنني قد استرجعت فيهـا صـدى أنغام شرخ الشباب وذكرياته الحلوة وأحلامه الوردية.

واستعدت محاولات الشاعر لتخمين اسم الفتاة الجميلة التي خلبت لُبَّه ولم يعرف بعد اسمها فيقول لها:

إني أســـمّيك ليلى

لتبعثي فـي خـيـالي

ذكـــــرى شـهـيـد غـرام

كـم عـــذبـتـــه الـلـيـــالي

جُنـونـه مـن جـنـونـي

ضـــــلالـه مـن ضـــــــلالي

قـــولـي هل اســـــمـك لـيـلى

أم ذاك وحـي غـــــــرامـي

إن قـلـت أو لـم تـقـــــــولي

فـاسـمك أحلى الأسـامي!

ولا يستـقـر الـشـاعـر بعد ذلك طويلاً على اسم ليلى وإنما يواصل تخميناته واختياراته هو لما يناسب جمالها من أسماء فيقول:

هـوايَ أدعـــــوك نجـــــوى

لـكـي أنـاجـيك دهري

أم هل أسميك سلوى

إذ أنت كأسي وخمري

أم هل أسـمـيـك رضـــوى

إذا رضـــــيـــت بـشـعـري

أم هل أســـمـيـــــك فـــدوى

وأفـتـديـك بـعـمـري

أم هـل أُنـــاديـــك نـــورا

لكي تنيري ظـلامي

إن قـلـت أو لـم تـقـــــولي

فاسـمك أحلى الأسـامي!

لكن ماذا (تهم الأسماء والكلمات) في النهاية كما يقول لنا شاعر الإنجليزية العظيم وليم شكسبير في مسرحية هاملت؟ إن الأهم منها دائماً هو جمال الروح والقلب الذهبي الذي تحمله صاحبة الاسم، وليس الاسم نفسه وهكذا يقول صالح جودت لنفسه أيضاً فيستدرك في ختام قصيدته قائلاً:

إن الأســـامي جـمـيـعاً

جـمـالـهـا لا يـفـيـك

فلـيـس فـي الـكـون حـسـن

إلا تجـمـع فـــــيـــــك

فما اهتمامي باسم

من اختيار أبيك

إني أسميك روحي

لو أنـهـا تُرضيك

تخيّري في الأســـــــامي

وبـيـن جـنـبـي نـامـي

إن قـلـت أو لـم تـقـــــــولي

فـاسـمك أحلى الأسـامي!

ألا تعذرني إذن في حبي لهذه القصيدة الجميلة من الشعر الرقيق رغم مرور كل هذه السنوات؟

وألا تشاركني سخطي على (لصوص الجياد)، الذين حرموني منها ومن معارف أخرى قرأتها في شبابي وحاولت استرجاعها بعد ذلك فاكتشفت سرقة مصادرها الثمينة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرجوك .. أتوسل إليك: اكتب مذكراتك

خسارة أن يجيء أي إنسان إلى الدنيا.. ويغادرها دون أن يترك وراءه كتاباً صغيراً يحكي فيه بأمانة تجربته في الحياة، ليستفيد منه من يجيء بعده ويستعين به على تعلم فن الحياة الصعب!

أنا شخصياً استفدت من قراءة قصص حياة بعض المفكرين والأعلام في كل المجالات، أكثر مما استفدت أحياناً من قراءة بعض أعمالهم، ومن عادتي إذا رأيت في أي مكتبة كتاباً يروي فيه مؤلفه قصة حياته أن أشتريه على الفور بغض النظر عن مكانة مؤلف الكتاب أو تخصصه أو رأيي فيه. فحياة أي إنسان حتى ولو كان شخصاً عادياً لا علاقة له بالأدب والفكر والدين والسياسة، تصلح لأن تكون كتاباً مفيداً إذا التزم فقط بأن يحكي فيه بأمانة قصة نشأته بين أبويه، والمواقف والمحن الشخصية التي تعرض لها.. وفيم أخطأ.. وفيم أصاب خلال صراعه مع الحياة.. إلخ.

وفي مكتبتي إلى جوار مذكرات الأعلام والمشاهير في المجالات المختلفة، مذكرات أخرى لأشخاص عاديين رأوا أن لديهم ما يقولونه للآخرين عن تجربتهم مع الحياة فسجلوها في مذكرات تلقائية بسيطة ومفيدة. وليس غريباً أن تجد عندي عدداً لا بأس به من الكتب التي تحمل عناوين من نوع: مذكرات مأمور شرطة، أو مذكرات ضابط سجون، أو مذكرات محام غير مشهور، أو مذكرات مدرسة بمدارس البنات! أو مذكرات شيخ أزهري قديم، بل وأيضاً مذكرات كومبارس بالسينما! ولو صدر كتاب بعنوان (مذكرات ماسح أحذية) لما ترددت في اقتنائه على الفور ولقرأته بشغف باحثاً بين سطوره عن خبرة حياته أو تجربة شخصية تعينني على فهم الحياة والتعامل معها.

ويبدو أنني قد اكتسبت هذه العادة تأثراً بالعقاد العظيم الذي كان يقرأ في كل شيء وأي شيء من الأدب والدين والتاريخ والفكر السياسي إلى كتب التراجم والسير الذاتية وعلم الحشرات وعلم الحيوان وعلوم الفلك.

وقد سأله ذات يوم في أوائل الستينيات الشاعر الأديب المرحوم صالح جودت:

- ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا؟

- فأجابه: أقرأ كتاباً عن حياة الممثلة الفرنسية بريجيت باردو!

وتساءل صالح جودت مندهشاً: العقاد العملاق، يقرأ عن بريجيت باردو؟!

فرد عليه العقاد بهدوء: ولم لا؟ ليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئاً ما مهما كانت ضألته، وفي حياة كل إنسان ما يستحق أن يتأمله المرء ويستفيد به، فإن لم أستفد من الكتاب التافة شيئاً على الإطلاق فقد عرفت منه على الأقل كيف يكتب الكتاب التافهون وفيم يفكرون؟

وقد لاحظت على نفسي منذ سنوات طويلة أنني لا أكاد ألتقي بأي إنسان يقترب من الستين أو تجاوزها وأستشعر فيه بعض الحكمة ورزانة التفكير حتى أبادره بهذا السؤال التقليدي: متى تكتب مذكراتك؟ فيندهش غالباً من أفاجئهم بهذا السؤال ويختلف رد الفعل من شخص إلى آخر، فيقول لي أحدهم وما شأني بالكتابة ولست من أهلها؟ ويقول آخر: وماذا في حياتي يستحق أن أسجله على الورق ويقرأه الناس ويقول ثالث: وحتى لو فعلت، فأين الناشر الذي ينشر كتاباً عن حياة إنسان غير معروف إلخ.

فلا أيأس لمثل هذه الإجابات المكررة، وأروح أحاول إقناع محدثي بأن حياة كل إنسان مهما كان شأنه لا تخلو من تجارب إنسانية عميقة وخبرة عملية اكتسبها من صراعه مع الأيام خلال رحلة العمر، ومن المفيد جداً أن يشرك غيره فيها كما استفاد هو مما قرأه للأدباء والمفكرين من كتابات ذاتية تتناول حياتهم الشخصية وتجاربهم مع الحياة.. إلخ.

ورغم تكرار المحاولة فلم أنجح خلال عشر سنوات حتى الآن في إقناع أحد بأن يكتب حياته إلا مرة واحدة، حين أقنعت رئيس إحدى محاكم الاستئناف هو المستشار الراحل ماهر برسوم بأن يكتب مذكراته عن 40 عاماً أمضاها في القضاء، فتحمس الرجل للفكرة ورجع إليّ بعد أسابيع ومعه مخطوطة كاملة لكتابه، وسألني كيف ننشره فرشحت له ناشراً من معارفي وعرفته به، فلم تمض فترة أخرى حتى طلب مني أن أكتب مقدمة لمذكراته، وكتبتها وصدرت بعنوان (مذكرات مستشار مصري) وسعدت بهذه المذكرات كثيراً وقرأتها أكثر من مرة، ومازلت أذكر منها ما رواه عن استقبال النائب العام له في أوائل الخمسينيات مع زملائه من وكلاء النيابة الجدد ليؤدوا اليمين القانونية أمامه تمهيداً لبدء عملهم، وكيف خطب فيهم النائب العام وقتها بلغة عربية بليغة وأسدى إليهم نصائحه الثمينة بأن يقيموا العدل ويتجنبوا مواطن الشبهات في حياتهم الشخصية، وكان من بين نصائحه الهامة لهم لكي يحققوا ذلك، أن يتجنبوا الاختلاط بثلاث فئات من البشر خارج حدود المكتب أو ساحة المحكمة هي: ضباط الشرطة، والمحامون، وأصحاب القضايا المعروضة عليهم، لكي يحتفظوا بحيادهم ولا يتأثروا في عملهم بالصداقة والاعتبارات الشخصية.

كما لازلت أذكر منها أيضاً ما حكاه عن فترة عمله كقاض بمحكمة أسوان حين كان ينظر نزاعاً بين شقيقين من أبناء النوبة حول ميراث، ووقف الخصمان أمامه فلاحظ أن أصغرهما يتعدّى الستين من عمره ومريض للغاية، حتى ليكاد يعجز عن الوقوف، فطلب إحضار مقعد له وأذن له بالجلوس، فلم يجلس، فكرر له الدعوة لأن يجلس فرفضَ بإصرار، وظن القاضي أنه يتحرج من الجلوس أمام رئيس المحكمة وهو في موقف النزاع، فسأله متعجباً: لماذا لا تجلس وقد أذِنت لك بذلك؟

فأجابه في حياء بأنه لا يستطيع أن يجلس وشقيقه الأكبر واقف لأن هذا ليس من أعرافهم وتقاليدهم في النوبة ولا من حسن الأدب، فإذا كانا قد اختلفا حول الميراث وأحالا أمره للقضاء ليفصل بينهما بالحق، فإن ذلك لا يعني أبداً أن ينتقص شيئاً من احترامه لأخيه الأكبر ولا أن يجترئ على الجلوس وهو واقف!

واغتنم القاضي الأديب هذه الفرصة الثمينة، وحدّث الشقيقين طويلا - وقد توسم فيهما الطيبة والخلق - عن صلة الرحم ووشائج القربى التي تعلو فوق كل أعراض الدنيا ونصحهما بالتراضي حول الميراث والاحتكام فيه للأهل وعقلاء العشيرة، فإذا بالشقيق الأكبر يعلن على الفور تنازله عن الدعوى ويخرج الشقيقان معاً يتساندان، مودعين من كل الحاضرين بالاحترام والإعجاب!

لكنه فيما عدا المستشار ماهر برسوم لم يستجب لي أحد للأسف ويكتب مذكراته على كثرة من دعوتهم لذلك.

ومذ فترة اتصلت بالداعية الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي ودعوته لأن يكتب مذكراته ويثري بها معارفنا وخبرتنا بالحياة فقال لي أنه قد فكر في هذا الأمر طويلاً ورأى في النهاية أن نشر مذكراته في الظروف الحالية قد يسيء إلى بعض الأشخاص الذين يتناولهم فيها، وهو لا يريد أن يسيء إلى أحد حتى ولو كان اختلف معه في بعض مراحل حياته.

وجادلته في ذلك بعض الوقت واقترحت عليه أن يكتب حتى ولو قصة نشأته الأسرية والمؤثرات العائلية والاجتماعية التي كونت شخصيته في مرحلتي الصبا وبواكير الشباب كما فعل عميد الأدب العربي طه حين في أجزاء (الأيام) الثلاثة، لكنه لم يتحمس لذ لذلك للأسف، وقال لي إنه يفضل أن يدع ذلك (للمستقبل)!

ولم تمض شهور على حديثنا هذا حتى كان الأجل المحتوم قد وافاه وهو يشارك في ندوة علمية بالمملكة العربية السعودية ودفن بأرضها رحمة الله عليه.. وضاعت عليّ وعلى الآخرين فرصة الاستفادة بقراءة مذكراته.. ليس فقط لكي أستمتع بها وإنما لكي أزداد إعجاباً بأبيه المتنور، الذي التحق ابنه بالمعهد الديني بالإسكندرية فاتخذ على الفور أجرأ قرار يستطيع أب يرعى ابنه ويفضله على نفسه أن يتخذه، فصفّى تجارته في بلدته وانتقل معه إلى الإسكندرية ليتيح له فرصة تلقي العلم ولو على حساب مصلحته الشخصية، وافتتح لنفسه مكتبة يعرض فيها الكتب الدينية والأدبية ودون أي سابق خبرة بتجارة الكتب أو المكتبات! وفي هذه المكتبة نَهَلَ الشيخ الفتى في صباه من عيون التراث العربي واكتسب أسلوبه الأدبي الرفيع في الكتابة، وبذور ثقافته الدينية العريضة، وفكره المتنور العظيم.

وفي هذه المكتبة عمل هذا الأب الجليل بضع سنوات حتى حصل ولده الشاب على شهادة الثانوية الأزهرية من معهد الإسكندرية وانتقل إلى جامعة الأزهر بالقاهرة. ويبدو أنه كان إلى جانب تقواه وصلاحه وإحساسه الفطري الراقي بواجبه الأبوي، خفيف الروح والظل، فلقد روى لي عنه فضيلة الشيخ الغزالي، أنه خلال عمله بتجارة الحبوب والغلال كان يسافر من بلدته إلى الإسكندرية ليشتري بعض تجارته وفي إحدى رحلاته هذه سقطت منه خلال سيره في الطريق حافظة نقوده وبها مبلغ كبير واكتشف ذلك وهو في محل أحد التجار فرجع من حيث جاء وراح يبحث عنها في الأرض لعله تتحقق المعجزة ويجدها حيث

سقطت، فإذا به يجدها بالفعل سليمة لم تمس فالتقطها ثم رفع يده إلى السماء بعفوية وتمتم معبراً عن شكره لربه: هات يدك أقبّلها!

أما الكاتب الصحفي المرحوم محمد جلال كشك صاحب الثقافة الموسوعية في الدين والاقتصاد والتاريخ والسياسة، والقلم اللاذع الساخر الجريء، فقد انزعج للفكرة حين اقترحتها عليه منذ سنوات، واستنكر أن يكون قد بلغ من السن ما يدعوه إلى كتابة مذكراته، وقال لي إن الإنسان لا يكتب سيرته الذاتية إلا حين يكون قد أدى رسالته ولم يعد له من دور يؤديه في الحياة في حين أنه محارب في ساحة الفكر، والمحارب لا يضع سلاحه جانباً وهو في حومة القتال ليراجع حياته ويكتب مذكراته! ولم أنجح للأسف في إقناعه بأنه حتى المحارب قد تكون له استراحة خلال المعركة يتذكر فيها أعزاءه ويحن إليهم قبل أن يعود إلى القتال مرة أخرى، ومع ذلك فقد آثار اقتراحي خواطره فأرسل إليّ مقالاً نشرته له في مجلة الشباب بعنوان: (هل حان وقت المذكرات) روى فيه قصة اقتراحي ورفضه له وانتهى فيه إلى أنه مازال شاب العقل والقلب، ولم يصبح بعد من أرباب المعاشات لكي يفكر الآن في تدوين سيرته الذاتية ودروس حياته، ولم يمض سوى عامين فقط بعدها للأسف إلا ورحل جلال كشك فجأة عن الحياة بأزمة قلبية فاجأته وهو مشتبك في مناظرة تليفونية أجرتها على الهواء إذاعة صوت أمريكا بينه وبين نصر أبو زيد حول أزمته المعروفة وانفعل خلالها جلال كشك انفعالاً حاداً وهو يستنكر ما أورده أبو زيد في بحثه الذي أثار حوله الجدل فعاجلته الأزمة القلبية الحادة ومات رحمه الله بعد لحظات، وخسرت المكتبة العربية كتابا نادراً كان يمكن أن يضيفه إليها عن حياته الحافلة ومعاركه الفكرية العديدة.

ومنذ سنوات دعيت مع عدد من الصحفيين إلى المدينة المنورة للاطلاع على توسعات الحرم النبوي قبيل انتهاء آخر مراحلها، وصحبنا الداعون في جولة في المسجد النبوي، ونزلنا إلى البدروم الشاسع حيث تقع غرف وماكينات التحكم بالكمبيوتر في الإضاءة والتكييف والأجهزة السمعية، ومظلات الساحة المكشوفة، واصطحبونا أيضاً عبر نفق طويل يمتد بضعة كيلو مترات تحت الأرض إلى محطة التكييف المركزية التي تضخ الهواء البارد إلى المسجد الكبير، ولاحظت أن من يشرح لنا معظم التفاصيل الفنية مهندس مصري عجوز يرتدي البدلة الأنيقة والكرافيت ويتفجر نشاطاً وحيوية رغم كبرسنه، ثم جاءت جلستي إلى جواره في سيارة الميكروباص خلال رحلة العودة إلى جدة، فإذا بي أعرف أنه المهندس الاستشاري الكبير الذي صمم كل تفاصيل هذه التوسعات، وأنه قد اختير لهذا العمل الهام لسابق خبرته في تصميم بعض مراحل توسعات الحرم المكي السابقة، وأنه ليس في الستينات من عمره كما ظننت وإنما هو في ربيعه الرابع والثمانين (وقتها أطال الله عمره) وأنه المهندس الذي صمم وأشرف على تنفيذ مبنى المجمع الشهير بميدان التحرير بالقاهرة ودار القضاء العالي فيها وعدد كبير من المباني الشهيرة والمساجد الكبرى في مصر والعالم العربي وتركيا، ليس هذا فقط بل وأنه أيضاً قد جاء إلينا في المدينة المنورة صباح يوم زيارتنا لها من لندن بعد

أن استدعته مجموعة شركات بن لادن التي نفذت توسعات الحرم المدني، ليرافقنا في هذه الزيارة فضلاً عن أنه زميل نفس الدفعة بكلية الهندسة التي تخرج فيها المهندس المعماري الشهير حسن فتحي عرفت كل ذلك عن الدكتور مهندس كمال إسماعيل، وتعجبت كيف وهو هذا المهندس المعماري العظيم لم ينل بعض شهرة حسن فتحي ولا يكاد يعرفه أحد خارج دائرة المتخصصين؟ وحكى لي المهندس الاستشاري الكبير أن حسن فتحي لم يحصل إلا على بكالوريوس الهندسة فقط أما هو فقد حصل على الماجستير ثم أوفدته جامعة القاهرة في بعثة إلى باريس في بداية الثلاثينات للحصول على الدكتوراه، فكان من بين أصدقائه هناك وقتها طالب الدكتوراه في القانون توفيق الحكيم، وكان يدرس على نفقته الشخصية ويرسل إليه أبوه من مصر. مبلغا (كبيرا) كل شهر هو عشرة جنيهات مصرية كاملة كانت تغطي نفقات الدراسة.. وإيجار المسكن وتسمح له أيضاً ببعض الرفاهية!

ورغم إشارته في حديثه معي إلى أن حسن فتحي لم يحصل على أية شهادة عليا بعد البكالوريوس فقد استدرك قائلاً: لكنه على أية حال قد نجح وحصل على شهرة عالمية مدوية!

وتأملت أنا هذه المفارقة الغريبة طويلاً خلال رحلة السيارة وانتهيت من خواطري وتأملاتي إلى أن حسن فتحي قد ذاعت شهرته في بلده وفي العالم كله واستعانت به المكسيك في تصميم قرى الفلاحين النموذجية هناك وحصل على جائزة أفضل مهندس معماري في العالم ولقب سيد البنّائين من أكبر الهيئات المعمارية الدولية ليس فقط لأنه كان مهندساً عظيماً وإنما أيضاً لأنه كان صاحب (دعوة)، وأفكار جريئة في العمارة، يدعو إليها وينشرها ويدافع عنها وهي الدعوة إلى البناء بنفس مواد البيئة المحلية من حجارة وطين وبأقل التكاليف مما عرف بعد ذلك (بعمارة الفقراء)، إلى جانب موقفه الرافض للكتل الخرسانية الصماء التي تشوه جمال البيئة في الريف وترفع تكاليف المسكن، كما كان يكتب ويحاضر ويؤلف الكتب عن أفكاره ودعوته فتجمع حوله الأنصار الذين اعتنقوا أفكاره في البناء والعمارة وترجمت كتبه إلى اللغات الأجنبية واختلف معه المعارضون لأفكاره وهاجموها وأصبح له مريدون يقلدونه في مصر والدول العربية وأوروبا وأمريكا اللاتينية.

أما هذا المهندس العظيم الذي يجلس إلى جواري في رحلة العودة فهو رجل أكاديمي عبقري أيضاً درس واجتهد وأبدع في تصميماته، وأشرف على تنفيذ مشروعات كبرى في عدة دول، ولكن في إطار السياق العام لقواعد فن العمارة السائدة ولم تكن له معركة يحاربها ولا دعوة يدعو إليها لهذا طغت شهرة المباني التي أقامها على شهرة اسمه هو نفسه لأنها لا تثير حولها جدلاً بين المؤيدين والمعارضين كما كان الحال مع حسن فتحي.

ورغم ذلك فمازال عجبي قائماً: كيف لا يكاد يعرفه أحد بعد هذا التاريخ الحافل من الإبداع المعماري؟ ولقد سألته بالطبع سؤالي التقليدي: لماذا لا تكتب مذكراتك وتروي لنا فيها قصة حياتك ونبوغك وإبداعك وتجاربك مع الحياة والعمل

والأسرة إلخ؟ فأجابني للأسف بأنه لا يرى في حياته ما يستحق أن يعرفه الناس وحتى لو رأى ذلك فما شأنه هو والكتابة وعنائها وهو رجل معمار وتصميمات هندسية وليس كاتباً ولا أديباً.

لكن لا يأس مع الحياة.. صحيح أنني لم أنجح في إقناع أحد بعد المستشار الراحل ماهر برسوم، لكني لم أيأس ولن أكف حتى النهاية عن أن أقول لكل من أتوسم فيه الخبرة بالحياة وثراء تجربته معها: متى تكتب مذكراتك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

من المهم جدا أن يجد كل إنسان في حياته من يخفق قلبه له بالحب والعطف والاهتمام، ومن يقول له حين يحتاج إلى التعاطف الإنساني: سلامتك من الآه ، وإلا تحولت الحياة إلى صحراء قاحلة وأرض جدباء لا تنبت إلا المر والحنظل.

وتتوقف علاقتنا بالآخرين وتعاطفهم معنا على قدرتنا على أن نتعلم جميعا كيف نحيا حياتنا بالطريقة الصحيحة، وكيف نبتهج بالحياة ونستمتع بها رغم الصعاب والآلام، وكيف نحاول دائماً تحجيم مساحة الشر والخسائر الإنسانية فيها، وتوسع من دائرة الخير والحق والجمال في رحلتها.. وأن نؤمن دائماً بأهمية الخير في حياتنا، وبالمثل العليا الجديرة بأن تعتصم بها وسط هدير أمواج الحياة المتلاطمة من حولنا.

وليس هناك أجدر من قلم الأستاذ عبد الوهاب مطاوع على رسم وتوضيح الطريق الذي يمكن أن نسير فيه حتى نتعلم تلك القيم السامية، فهو يصحبنا من خلال هذا الكتاب مع فصول من الحياة بكل ما فيها، مصوراً معاناة أبطالها، شارحاً لهم سبيل الخلاص. وكيف يعيشون بهجة الحياة ويؤمنون بها متسلحين بالحماس والشباب كحالة وجدانية وعقلية تجعلهم قادرين على التعامل مع الحياة متعلقين دائماً بالأمل في غد أفضل، وألا نفقد أبداً قدرتنا على تذوق الأشياء الجميلة في الحياة والابتهاج بها، مهما بدت للآخرين من فاقدي الحماس أشياءً بسيطة وعادية.

الناشر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

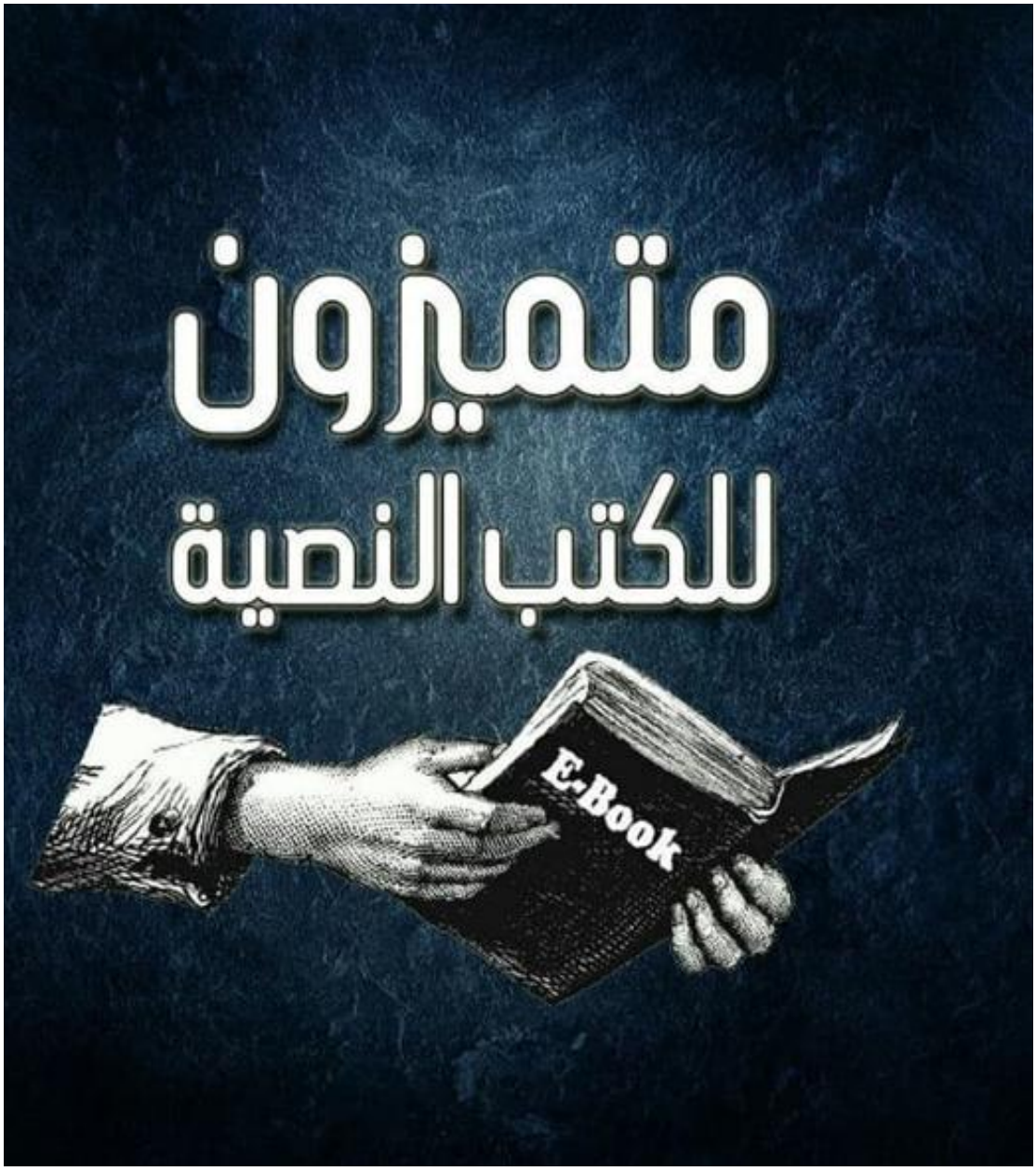
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

هذا الكتاب..

ضيعت الشلن!

إبرة.. وفتلة!

تحت المظلة!

نقطة تحول!

الأستاذ ديكارت!

لا تنس وضع الغطاء!

لكنه شخص آخر

كن عبقرياً واصنع ما شئت !

سلامتك من الآه

سلامتك من الآه (2)

ثرثرة صيفية!

مطرب العواصف!

عصفور .. كل إنسان!

إلا أنا..وأنت!

الأصابع الملوثة!

الخوف يا صديقي!

عيون العظماء!

كيف تأكل البطاطس وتصبح أديباً عظيماً؟!

أحلى الأسامي!

أرجوك .. أتوسل إليك: اكتب مذكراتك

الخاتمة